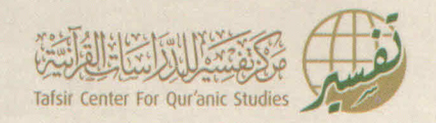
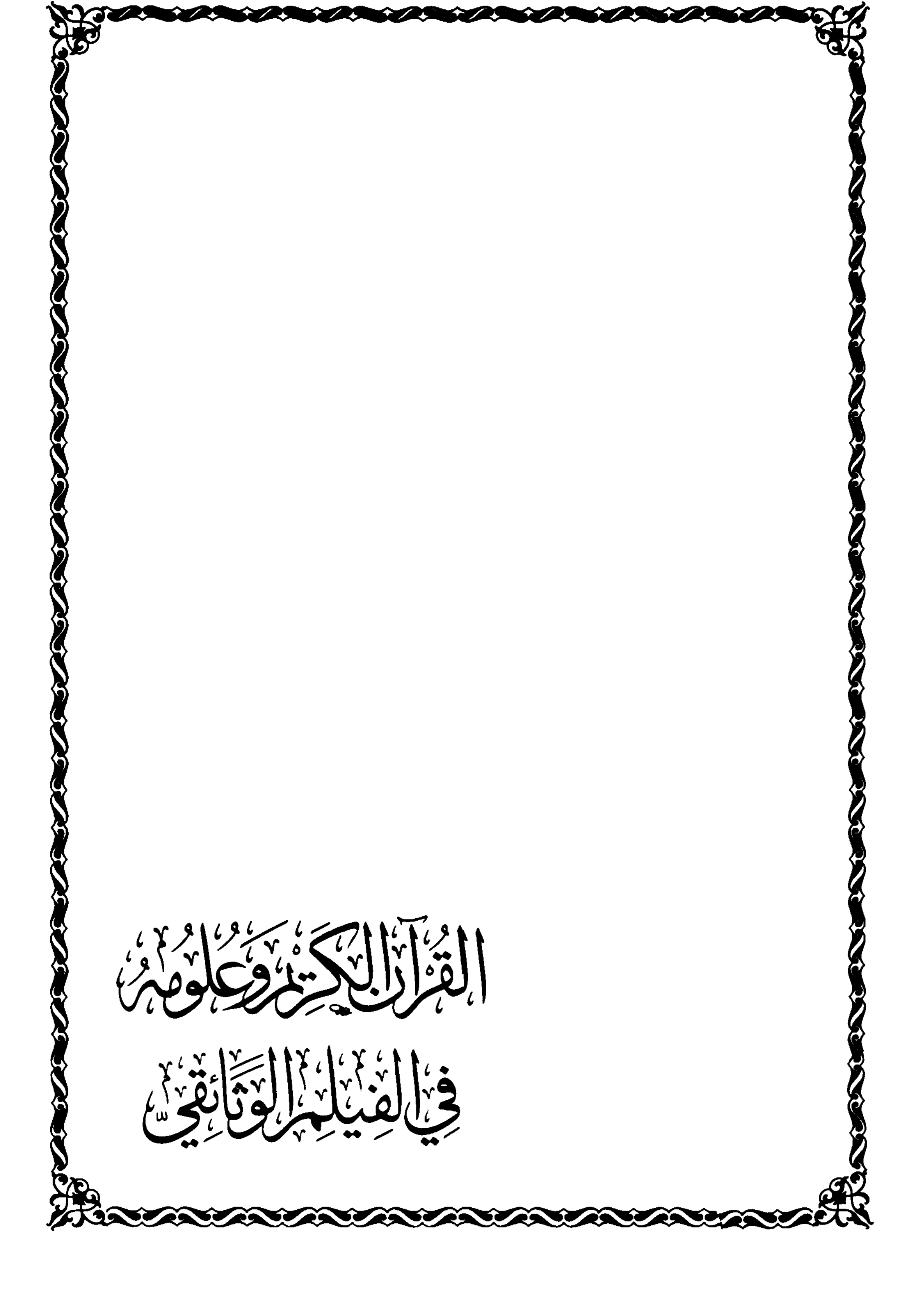
الإصدار (٢٠)



دراسات نقدية (٢)

القرآن الكريم وعلومه في الفيلم الوثائقي

مقالات لنخبة من الباحثين والنقاد

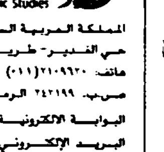

القرآن الكريم وعلومه
في الفيلم الوثائقي

الطبعة الأولى

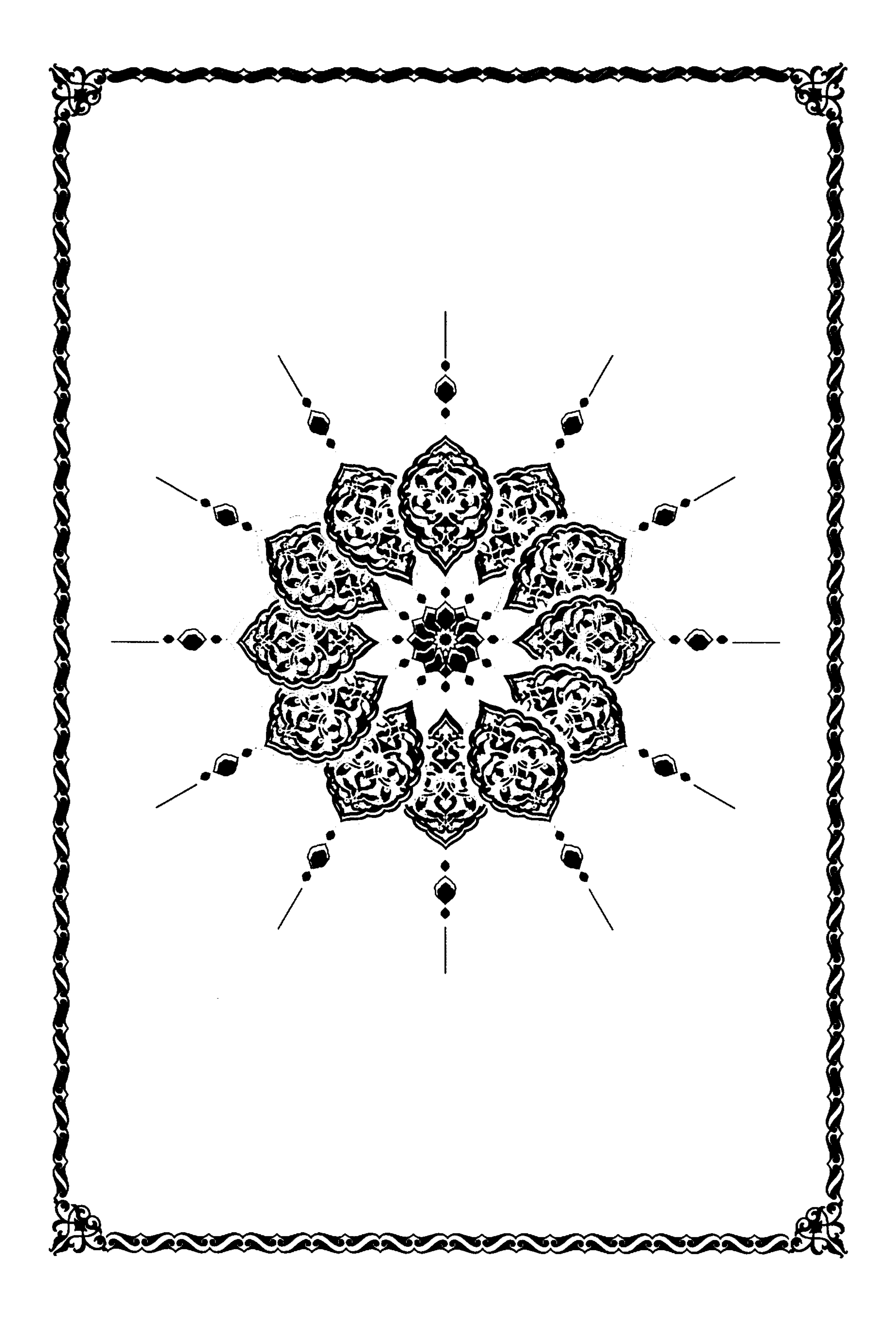
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

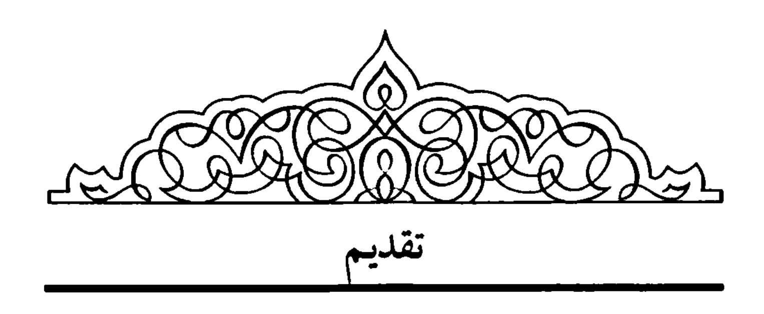


المملكة العربية السعودية - الرياض
حي الغدير - طريق الملك عبد العزيز
هاتف: ٢١٠٩٦٢٠(٠١١) فاكس: ٢١٠٩٧١٣(٠١١)
ص.ب. ٢٤٢١٩٩ الرمز البريدي ١١٣٢٢
البوابة الإلكترونية: www.tafsir.net
البريد الإلكتروني: info@tafsir.net









تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد، فإن المشاركة في العمل الإعلامي الهادف لم تعد موضع تردد في أهميتها وضرورة العناية بها، بل المتعيّن اليوم هو النظر والبحث في إيجاد البرامج والمشاريع النوعية الهادفة التي تنافس مثيلاتها في مسارات الإعلام الأخرى، وتقدّم العلوم والمعارف والقيم الإسلامية بأجمل وأفضل ما توصلت إليه وسائل التخاطب والتواصل من الآليات والتقنيات.

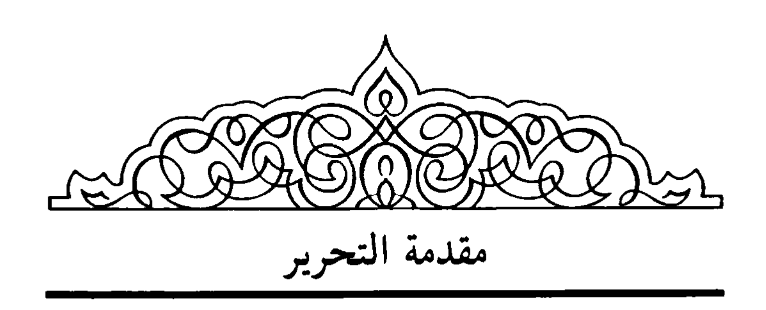
وما من شكٍّ في أن الفيلم الوثائقي أصبح من أبرز الأنماط والأدوات الإعلامية التي تناسب المادة المعرفية، ويمكن من خلاله نشر المعلومات والدعوة للأفكار والتأثير في المتلقي متى ما أحسن توظيف هذه الأداة وتطويرها بما يتناسب وجلالة علوم القرآن ويتلاءم مع واقع العصر وزخم المنافسة على اهتمام المشاهد.

ومن هنا يأتي هذا الإصدار بمشاركة نخبة من الباحثين والنقّاد

والمهتمين بالشأن الإعلامي انطلاقًا من رؤية مركز تفسير للدراسات القرآنية في ريادة تطوير الدراسات المتصلة بالقرآن وعلومه تطويرًا يعنى بالوسائل والأساليب والاستفادة من المناهج العلمية المختلفة مع المحافظة على الثوابت والأصول بفهم سلفنا الصالح، وينبع من رسالته التي تهدف إلى فتح آفاق جديدة للبحث العلمي في هذا التخصص المهم في صرح الثقافة الإسلامية، آفاق تبني على ما قدمته الأمة عبر القرون من جهود مباركة في خدمة القرآن وعلومه، وتجدد فعاليته في توجيه المجتمع للقيم المثلى، وتقرّبه إلى مختلف الشرائح والطبقات، وتجتهد في إيصال أنواره إلى كافة أرجاء الدنيا، متعاونين في سبيل ذلك مع المتخصصين والمهتمين وذوي الخبرة من سائر المجالات المعرفية تحقيقًا لمبادئ التعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق، وسؤال أهل الذكر.

وكشأن أي عمل بشري فإننا لا ننزّه هذا العمل عن الخطأ والسهو، وهو لا يعبر بالضرورة في جميع مفرداته عن رأي المركز، ونجدد دعوتنا إلى القارئ الكريم موافاتنا بنصحه وتسديده، لنبلغ بأعمالنا ما نستطيع من الإتقان الذي يليق بكتاب الله الكريم وعلومه، ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا جميعًا لما يحب ويرضى، وأن يجزي المشاركين في هذا العمل خيرًا على ما قدموه من رؤىً نافعة وأفكار هادفة، إنه أكرم مسؤول.

مركز تفسير للدراسات القرآنية



مقدمة التحرير

يرى العلماء قديمًا أنَّ غالب العلوم العربية والشرعية نشأت وتطورت لخدمة القرآن الكريم، ويجب علينا حديثًا أن نُسخِّر كل الوسائل والتقنيات المعاصرة لخدمة الكتاب العزيز.

الفيلم الوثائقي: واحد من هذه الوسائل الجميلة التي ظهرت في العصر الحديث، وبدأ يأخذ طريقه توسعًا وانتشارًا في عالمنا العربي.

في هذا الكتاب مجموعة من المقالات كتبها نخبة من الباحثين والنقاد والمخرجين من دول عربية مختلفة، وذلك استشعارًا منهم بأهمية استثمار الفيلم الوثائقي وتوظيفه في خدمة القرآن الكريم وعلومه، كلبنة أولى في تكوين هذا المشروع الحيوي، ومحاولة منا في إرضاع المعلومة القرآنية للجيل الحالي ـ والذي يليه ـ بما يناسب زمنهم ووسائلهم.

إنَّ طرح مثل هذا الموضوع (القرآن الكريم وعلومه في الفيلم الوثائقي) نهدف من خلاله إلى العديد من الأسئلة والقضايا منها:

أولًا: أهمية تعميق القيم الصحيحة المنبثقة من هذا الكتاب المقدس، الذي أُنزل على النبي محمد ﷺ من أجل إسعاد وتنوير البشرية جمعاء.

ثانيًا: تصحيح التمثلات الخاطئة عنا كمسلمين، لا سيما تلك التي روَّج لها الكثير من الغرب، إمَّا بشكل نمطي تداولي خاطئ، أو ربما لغاية ما تتساير وطبيعة الصورة الاستشراقية بشكل عام.

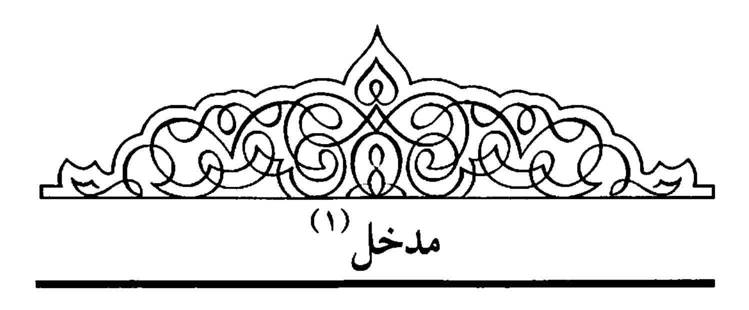
ثالثًا: كيفية توظيف الثقافة السمعية والبصرية بشكل عام، والفيلم الوثائقي بشكل خاص، كأداة فنية وجمالية وتربوية، من أجل تقريب ما يحمله القرآن الكريم من صيغ متعددة ومتنوعة كالمواد القصصية والعبر التاريخية، والعديد من الأسئلة والأجوبة التي يطرحها.

رابعًا: قراءات إحصائية في الموجود من الأفلام الوثائقية العربية والإسلامية والغربية عن هذا الكتاب الكريم في أفق حصر وتأمل هذا المنجز، بغية تطوير وتقديم الأفضل والأنسب والأجمل.

وقد احتوى هذا الكتاب (١٣) مقالة تتنوع محاورها بين التنظير، والقراءة والنقد، وكذلك التجارب، والأفكار والمشاريع.

وختامًا: أرجو أن يكون هذا الكتاب مادة فكرية غير مسبوقة في ساحتنا الثقافية العربية والإسلامية، وإضافة نوعية يتأرجح وجودها بين المكتبة القرآنية، والمكتبة الإعلامية والسينمائية، كما أدعو المتخصصين في الدراسات القرآنية للاقتراب أكثر إلى الأفلام الوثائقية والمساهمة في صناعتها، وإشاعة ثقافتها بينهم.

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الضامر



مدخل[1]

● د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الضامر ●

لم تكن فكرة التوثيق من الأفكار الجديدة في حياتنا المعاصرة، بل هي قديمةٌ قدم الزمان، فما زال البدائيون يوثقون حياتهم وتحركاتهم عبر النقش في الحجر، والرسم على الجدران.

وفي كل زمن نجد صورة التوثيق تتطور حسب ما يتاح لهم من فرص وإمكانيات.

وفي بدايات القرن العشرين الميلادي، اخترع الإنسان كاميرة الفيديو فتطورت وتشكلت إلى أن أصبحت في جيب كل إنسان، وأخذ الناس يوثقون حياتهم وعلومهم وعيشهم اليومي عن طريق هذه الآلة الصغيرة، وإنتاجها على شكل أفلام مختلفة المشارب والمدارس، ومن هذه الأفلام ما تسمى بالأفلام الوثائقية أو التسجيلية.

والسؤال: كيف يمكن لنا أن نُسخِّر هذه الأفلام لصالح القرآن الكريم وعلومه، ونوظفها توظيفًا مناسبًا للفترة الراهنة التي نعيشها؟

(١) أصله ورقة تقدم بها الباحث إلى المؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية التابع لكرسي القرآن الكريم وعلومه في جامعة الملك سعود بالرياض ٦/ ٤/ ١٤٣٤هـ ١٦/ ٢/ ٢٠١٣م.

وفي هذه الورقة محاولة جادة للإجابة عن هذا السؤال من خلال العناصر الآتية:

أولًا: تعريفات عامة لعنوان البحث.

ثانيًا: أهمية توثيق مسائل علوم القرآن من خلال الأفلام الوثائقية.

ثالثًا: خطوات توثيق مسائل علوم القرآن من خلال الأفلام الوثائقية.

رابعًا: مكونات الفيلم الوثائقي.

خامسًا: بعض التوصيات والأفكار المتعلقة بتوظيف مسائل القرآن الكريم وعلومه من خلال الأفلام الوثائقية.

سادسًا: بعض العناوين المناسبة لأن تكون مشاريع مناسبة لأفلام أو سلاسل وثائقية خاصة بالقرآن الكريم وعلومه.

أولًا: تعريفات عامة لعنوان البحث:

احتوى عنوان البحث على ثلاث مفردات:

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ علوم القرآن الكريم.

٣ ـ الأفلام الوثائقية.

وقبل الخوض في صلب الموضوع فإنه يجدر بنا أن نُعرِّف هذه المفردات بوصفها مفردة مستقلة، وكذلك بوصفها مركبة إضافية، وذلك على سبيل الاختصار.

القرآن الكريم:

اهتم العلماء والباحثون في تعريف القرآن الكريم، بالرغم من أنه تكفي الإشارة إليه[١] كما قال محمد دراز (ت: ١٣٧٧هـ)، ولكن لما له من المكانة السامية في قلوب المسلمين أخذوا يبحثون عن اشتقاقاته ومعانيه وأسمائه وصفاته ونحو ذلك، وسأكتفي هنا بذكر تعريفه لغة واصطلاحًا على سبيل الاختصار:

ففي اللغة: مصدر يعني القراءة والتلاوة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٧ .... ١٨) أي قراءته.

ثم صار عَلَمًا لذلك الكتاب الكريم، وهذا هو الاستعمال الأغلب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩)، وقد ذهب إلى هذا التعريف اللغوي عدد من العلماء والمفسرين[٢].

وفي الاصطلاح: كلام الله المُنَزَّل على نبيه محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته، المعجز بأقصر سورة[٣].

علوم القرآن الكريم:

لم يحرص المتقدمون حسب علمي - على إيجاد تعريف لمصطلح علوم القرآن بالرغم أنَّ هناك بعض المؤلفات المتقدمة كانت تحمل

---

(١) ينظر: النبأ العظيم (ص: ٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٩٠، ٩١)، تهذيب اللغة (٩/ ٢٧٢)، فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٨)، (١٧/ ٣٦)، روح المعاني للألوسي (١/ ٨)، مناهل العرفان للزرقاني (١/ ٧)، النبأ العظيم لدراز (ص: ٥) وغيرها.

(٣) ينظر: المحرر في علوم القرآن، د. مساعد الطيار (ص: ٢١).

عنوان هذا المصطلح ككتاب (فنون الأفنان في علوم القرآن) لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (ت: ٧٤٩هـ)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت: ٩١١هـ) وغيرها.

وقد اجتهد الباحثون المعاصرون في تحديد هذا المصطلح ومن أبرزها تعريف الدكتور مساعد الطيَّار: «جملة من أنواع المعلومات المضبوطة ضبطًا خاصًّا، المتعلقة بالقرآن الكريم من حيث نزوله وجمعه وقراءاته ومكيِّه ومدنيِّه وأسباب نزوله وما إلى ذلك»[(١)].

الأفلام الوثائقية:

يعد مصطلح الأفلام الوثائقية دخيلًا على العالم العربي، فهو ترجمة للمصطلح الأجنبي documentary films، وكان أول من استخدم هذا المصطلح هو جون جريرسون[(٢)] (ت: ١٩٧٢م)، وذلك في الثلاثينيات الميلادية مستمدًّا إياه من الكلمة الفرنسية (وثيقة) التي كانت تعني (مَحاضر مصورة عن رحلة ما)[(٣)]، ويحتوي هذا المصطلح على مفردتين:

الأولى: الأفلام: جمع فيلم، وكان يطلق على الآلة التي تُسَجِّل

---

(١) المحرر في علوم القرآن (ص: ٢٢).

(٢) يعتبر جون جريرسون رائد الفيلم الوثائقي الاسكتلندي، ومن كبار النقاد السينمائيين، حصل على العديد من الجوائز لمشاركته في الأفلام الوثائقية، توفي في انجلترا سنة (١٩٧٢م).

(٣) ينظر: صناعة الأفلام الوثائقية من الفكرة إلى الشاشة، ناصر ونوس مقال ضمن كتاب الفيلم الوثائقي: قضايا وإشكالات (ص: ١٢٤).

عليها المادة، وهو ما يُسمى بالشريط[١]، ثم توسعت المفردة فأصبحت: عبارة عن المادة المصَّورة والمعدَّة وفق نظام معين.

والأخرى: الوثائقية: نسبة إلى وثائق على غير قياس، قال ابن فارس (ت: ٣٩٥هـ): «الواو والثاء والقاف كلمة تدل على عَقْد وإحكام، وَوَثَّقْتُ الشيء: أَحْكَمْتُهُ»[٢]، ومن ذلك قولهم: وَثَّقْتُ الحادثة بفيلم أي أحكمتها وأكدت خبرها. وأمَّا تعريف هذه المصطلح بوصفه تعريفًا مركبًا فقد أثار جدلًا لازال قائمًا عند الأكاديمين والمبدعين والنُقَّاد، وسوف أقوم باختيار التعريف المناسب لخصوصية الأفلام المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه، ولعلَّ من أبرز التعريفات الواردة:

١ ـ تعريف الأكاديمية الأمريكية لعلوم وفنون السينما والتلفزيون: «الفيلم الذي يتعامل مع مواضيع تاريخية أو اجتماعية أو علمية أو اقتصادية، سواء صُوِّر وقت وقوع الأحداث الحقيقية، أم أُعيد بناء أحداثه الحقيقية وتجسيدها (أعيد تمثيلها)، إذ يكون تركيز الفيلم الأساسي على المحتوى الحقيقي أكثر من اهتمامه بالجوانب المتعلقة بالتسلية»[٣].

٢ ـ تعريف الاتحاد الدولي للأفلام التسجيلية سنة (١٩٤٨م): «كافة أساليب التسجيل على فيلم لأي مظهر للحقيقة يتم عرضه إمَّا بوسائل

---

(١) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ١٧٤٣) مادة (فلم).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٦/ ٨٥) مادة (وثق).

(٣) وقائع الزمن الضائع...، أمير العمري مقال ضمن كتاب الفيلم الوثائقي: قضايا وإشكالات (ص: ٢١٣).

التصوير المباشر أو بإعادة بنائه بصدق وعند الضرورة، وذلك لحفز المشاهد إلى عمل شيء أو لتوسيع مدارك المعرفة والفهم الإنسانية أو لوضع حلول واقعية لمختلف المشاكل في عالم الاقتصاد أو الثقافة أو العلاقات الإنسانية»[١].

٣ ـ تعريف معجم الفن السينمائي سنة (١٩٧٣م): «نوع من الأفلام غير الروائية التي لا تعتمد على القصة والخيال، بل يتخذ مادته من الواقع سواء أكان ذلك بنقل الأحداث مباشرة كما جرت في الواقع، أم عن طريقة إعادة تكوين وتعديل هذا الواقع بشكل قريب من الحقيقة الواقعية»[٢].

٤ ـ تعريف معجم اللغة العربية المعاصرة: «برنامج يقدِّم موضوعه بشكل حقيقيّ، مزوّد عادة بأخبار ومقابلات، ومصحوب بالرِّواية»[٣].

ويتضح من هذه التعريفات أنَّ الفيلم الوثائقي عبارة عن وصف أو توثيق لمكان، أو حدث، أو شخص، أو قضية معينة في الواقع وليست من نسج الخيال، ولذلك نجد جون جريرسون (ت: ١٩٧٢م) الذي يعتبر أول من أطلق مصطلح الفيلم الوثائقي يصفه: بأنه «المعالجة الخلاقة للواقع»[٤].

كما يُطلق بعض النُقَّاد على الفيلم الوثائقي مسميات أُخرى نحو:

---

(١) الفيلم التسجيلي، محمود سامي عطا الله (ص: ٩).

(٢) المصدر السابق (ص: ٩).

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة د. أحمد مختار عبدالحميد عمر وآخرون (٣/ ٢٣٩٩) مادة (وثق).

(٤) الوثائقيات بين تجربتي (بي بي سي العالمية)و (شبكة الجزيرة الوثائقية)، عاصم علي الجرادات مقال ضمن كتاب الفيلم الوثائقي: قضايا وإشكالات (ص: ٢٣١).

(الأفلام التسجيلية)، (أفلام الواقع)، (أفلام اللاخيالي)، (أفلام عن الحياة)، (أفلام المعرفة)، (أفلام التوعية)[١].

ويعتبر مسمى (الأفلام التسجيلية) من أشهر المسمَّيات التي تنافس مصطلح (الأفلام الوثائقية)، إلاَّ أنَّ بعض الإعلاميين والنقَّاد يُفرق بين المصطلحين، فالتسجيلي هو تصوير الحياة اليومية لشخص أو مجموعة من الأشخاص بهدف رصد حالة معينة والتركيز على جوانب ربما تكون غائبة عن الكثيرين، بخلاف الوثائقي الذي يعتمد على الوثائق والحقائق التاريخية أكثر من كونه رصد لحياة شخص أو مجموعة وحياتهم اليومية[٢].

إذن فيمكن لنا أن نقول أنَّ الفيلم الوثائقي وصف للماضي، وأمَّا التسجيلي فهو وصف للحاضر.

ثانيًا: أهمية توثيق مسائل علوم القرآن من خلال الأفلام الوثائقية:

لقد تم توثيق مسائل علوم القرآن الكريم من خلال تدوينها في كتب ومصنفات ورسائل وذلك من قبل عدد من العلماء باختلاف أزمانهم

---

(١) ينظر: قراءة في نظرية الصورة في الفيلم التسجيلي، قيس الزبيدي مقال ضمن كتاب الفيلم الوثائقي: قضايا وإشكالات (ص:١٦٧)، الفيلم الوثائقي بين وهم الموضوعية وواقع الذاتية، أحمد بوغابة مقال ضمن كتاب الفيلم الوثائقي: قضايا وإشكالات (ص:١٨٣).

(٢) ينظر: الأفلام التسجيلية ورصد الحياة العراقية بعد الاحتلال، د. عمر راغب زيدان، بحث منشور في مجلة حضارة، العدد الثاني (ص:١٢٣).

ومكانهم، فأصبحت هذه المؤلفات هي العلامة الوحيدة والمهمة لإثبات تاريخ هذه العلوم.

إلاَّ أنَّ هذا العصر أخذت الصورة تشارك في توثيق مثل هذه العلوم أعني علوم القرآن الكريم، فالفيلم الوثائقي أشبه ما يكون بالكتاب الجديد المختلف في طريقة العرض والشكل، بل هو نوع من إعادة ما هو مكتوب في هذه المؤلفات بطريقة أكثر جاذبية.

وقد تكون هذه الأفلام في يوم من الأيام مرجعًا ومصدرًا مهمًّا من مصادر المعرفة عندنا، فإذا صنعنا على سبيل المثال فيلمًا وثائقيًّا لسيرة أحد المفسرين المعاصرين وجهوده في خدمة القرآن الكريم، وأجرينا معه لقاءً مطولًا حول تجربته العلمية.

فإنَّ بعد تقادم الزمن وموت هذا المُفَسِّر يأتي هذا الفيلم كوثيقة مهمة للباحثين الذين يريدون الكتابة حول هذه الشخصية، وجهودها في خدمة القرآن الكريم، فيكون من أهم المراجع في كتابهم.

وهذه القضية أعني جعل الفيلم الوثائقي مصدرًا من مصادر المعرفة حاصلةٌ الآن عند الغرب حيث جعلوا أفلامهم كذلك أثناء كتابتهم لأبحاثهم ومؤلفاتهم، فتجد الباحث يستشهد في كتابه بلقطة من لقطات أحد الأفلام الوثائقية لكي تتضح الفكرة أكثر عند المتلقي وتزيده إقناعًا.

كما أنَّ الفيلم الوثائقي يُرَسِّخ مسائل علوم القرآن في ذهن المتلقي، لا سيما إذا عُرضت بوسائل متنوعة كطريقة التشجير والتخطيط والرسوم

التي يصنعها برنامج الجرافيك[١]، ويتضح ذلك جليًّا عندما نقوم بذلك أثناء بيان أصحاب القراءات القرآنية السبعة ورواتهم، وكذلك بإظهار مناطق انتشار قراءتهم من خلال خريطة العالم الإسلامي ونحو ذلك.

ولا زلت أتذكر ذلك المقطع القصير والنادر للشيخ عبدالرحمن السعدي (ت: ١٣٧٦هـ) وهو في بيروت سنة (١٣٧٣هـ)، في وقت لم تكن كاميرة التصوير حاضرة بشكل كبير في السعودية، فصرت كلَّما أقرأ تفسيره (تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن)، يتبادر إلى ذهني ذلك المقطع وتلك الصورة!

وكذلك الحال عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ) الذي لم يترك لنا إلاَّ صورة فوتوغرافية واحدة، فصار كلَّما رأيت كتابه (أضواء البيان في تفسير القرآن)، أو استمعت إلى دروسه الصوتية التي كان يُلقيها في المسجد النبوي تترائى إليَّ تلك الصورة مباشرة لا سيما الجيل الذي لم يدرك فترته أمثالي!

كما أنَّ توظيف الموضوعات القرآنية في الفيلم الوثائقي هو نوع من التجديد والتغيير في ظل العرض المعاصر لقضايا القرآن الكريم الذي يقتصر على ظهور أحد العلماء أو الدارسين من خلال استديو يُخَصَّص له فيشرح ما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه، وهو ما أُسميه بـ(ثقافة الاستديو)، مع التأكيد إلى أني لا أُثرب على هذه الطريقة إطلاقًا بل

---

(١) الجرافيك: هي الصور التي يتم إنتاجها باستخدام الحاسب، والتي تشمل الرسومات التوضيحية، ورسوم الكارتون المتحركة، وحتى الصور الحقيقية عالية الجودة. ينظر: موقع ويكيبيديا الإلكتروني.

فيها خير ونفع كثير، إلاَّ أنَّ هناك عددًا من المتلقين يحب أن يتلقوا المعلومة القرآنية وهي مغلفة بوسائل مختلفة من جمال الصورة، وثراء العرض ونحو ذلك.

وقد قمت بكتابة سؤال عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي (الفيس بوك) وصيغته: هل تؤمن بأهمية توظيف القرآن الكريم وعلومه من خلال الأفلام الوثائقية؟ فكانت الموافقة بالإجماع على أهمية ذلك!

وبالرغم من هذه الأهمية التي ذكرتها إلاَّ أني لا أجد الفيلم الوثائقي حاضرًا بشكل كبير في قنواتنا المتخصصة في القرآن الكريم وعلومه (الفجر، الحافظ، القرآن الكريم السعودية، المجد للقرآن الكريم، أهل القرآن، السادسة المغربية، القرآن الكريم الجزائرية)!

مما يؤكد لي أنَّ فكرة الأفلام الوثائقية مازالت تنعم في الغرب، وتلقى قبولًا رائجًا أكثر من بلادنا العربية!

ثالثًا: خطوات توثيق مسائل علوم القرآن من خلال الأفلام الوثائقية:

يعتبر الفيلم الوثائقي من الأعمال الجادة في الإعلام المعاصر، ولذلك نجده حاليًا تقتصر مشاهدته من قبل النخبة بل نخبة النخبة إذا صح التعبير!

ولا يشك أحد في الفائدة المرجوة من خلاله، ولذلك ينبغي على الجهات العلمية كالجامعات ومراكز الأبحاث والكراسي البحثية، أن

تجعل من ضمن مشاريعها إنتاج بعض السلاسل والأفلام الوثائقية المناسبة لفلسفة تخصصها، وتشارك في وعي المجتمع.

وبذلك تكون قد شاركت في تعريف المجتمع بأبرز علومها ومعارفها، لا سيما أنَّ هذه الأفلام والسلاسل قد تكلف مبالغ كبيرة نوعًا ما، لكنها ستصبح أعمالًا خالدة على مَر الزمن يستفيد من خلالها الأجيال.

والسؤال: ما هي أبرز الخطوات التي يمكن توثيق مسائل علوم القرآن من خلال الأفلام الوثائقية؟

وللإجابة على هذا السؤال فقد جعلتها في الآتي:

١ ـ أن نتأمل في موضوعات علوم القرآن، ونرى ما هو الجانب المهم الذي يحتاج إلى تجلية ووضوح، ويمكن الاستعانة بفهارس كتب علوم القرآن الموسوعية كالإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت: ٩١١هـ) وغيرها.

وقد قمت بإنتاج سلسلة وثائقية بعنوان: (خطاطون في رحاب النور)، تُسلط الضوء على أبرز خطاطي المصحف الشريف في العالم الإسلامي، وتفاجأت حينما التقيت ببعض المشاهدين الذين أسروا إليَّ أنهم كانوا على ظنٍّ من أنَّ المصحف الشريف الذي بين أيديهم عبارة عن حروف كتبت بالحاسب الآلي، ولم يخطر ببالهم أن تكون هذه الأعمال من صنع الإنسان في العصر الحديث، لذا كان من الواجب تعريف الجيل الجديد بمثل هؤلاء الخطاطين الذين قضوا طيلة حياتهم بكتابة كلام الله تعالى.

٢ ـ **تحري الصدق والصحة:** إذ أنه من أهم الأمور التي ينبغي أن تُراعى أثناء إنتاج الفيلم، ويكمن هذا التحري من خلال إثبات الحقيقة العلمية والتاريخية، فلا يقوم الفيلم على تزييف التاريخ، أو تغيير الحقائق، وإلا اعتبر ذلك نوعًا من الخيانة العلمية والتاريخية، وهو ما يُسمى بمسألة الصدق أو الصحة في السينما الوثائقية(١).

فإذا قام أحد المنتجين مثلًا بإنتاج فيلم حول قصة جمع المصحف وذهب إلى أنَّ أول من جمع المصحف هو علي (رضي الله عنه) بعد وفاة النبي ﷺ، وادعى تحريف جمع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما للمصحف، ونحو ذلك من الأفكار والمعتقدات المؤدلجة التي تُخالف الحقيقة العلمية والتاريخية، فبذلك يكون قد تغير بناء الفيلم بناءً على تغير مادته التاريخية وتبني المنتج أو المخرج لها!

وقِس على ذلك إذا تولى الفيلم أحد الكفار الجائرين أو المستشرقين أو بعض المذاهب والأفكار المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة.

٣ ـ **التجرد والموضوعية:** وهو أمر صعب للغاية، يحتاج إلى مراعاة ودقة وانتباه وذكاء أثناء الإعداد والتصوير والمونتاج، فالذاتية سائدة لا محالة سواء في اختيار مواضيعها أو في تناولها ومعالجتها السينمائية، فالزاوية مثلًا التي يتناولها مخرج الفيلم أثناء التصوير قد تحمل انحيازًا لفكرة معينة ربما نراها تختلف من خلال عمل فيلم آخر يحمل نفس الموضوع تم تناول فكرته من زاوية أُخرى.

---

(١) ينظر: صناعة الأفلام الوثائقية من الفكرة إلى الشاشة، ناصر ونوس مقال ضمن كتاب الفيلم الوثائقي: قضايا وإشكالات (ص: ١٢٤).

فإذا كان مخرج الفيلم مثلًا يتبنى مسألة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم على وجه الإطلاق فإنه سوف يكون أثر ذلك واضحًا في فيلمه على حساب من يرى بخلاف ذلك، وكان ينبغي عليه أن يكون أكثر حيادية وتجردًا.

أو إذا أُسند أمر إلى أحد المخرجين لإنتاج فيلم لمصحف معين من قبل مؤسسة أو دولة معينة فإنه سوف يتطرق إلى إيجابياته دون ذكر السلبيات الفنية الواردة فيه، وذلك بناءً على طلب تلك المؤسسة!

«إذن فمخرج الفيلم ليس شخصًا مُجرَّدًا ولا يمكنه أن يشتغل في المطلق فهو يحمل معه تكوينه الاجتماعي والطبقي والثقافي والسياسي مهما حاول أن يكون موضوعيًا في رصد ما يُصوره إذ لا يمكن أن ننزع منه جلده الذي التصق به مرجعيّات أصبحت جزاء منه ومن خلالها يرى العالم ومنها ينطلق»(١).

٤ ـ معرفة الفئة المستهدفة لهذا الفيلم، فإذا كانت الفئة للمتخصصين ينبغي أن يكون العرض أكثر تركيزًا وخصوصية، ويتم من خلاله بيان الآراء المتباينة في الموضوع وذلك باستضافة بعض الشخصيات التي يتبنى كل منها قولًا، ويقوم كل منهم بعرض قوله وأدلته، ثم يُترك الحكم بعد ذلك للمتلقي المتخصص حتى يُبدي وجهة نظره بناء على ما رأى وسمع، كما هو في موضوع التفسير الموضوعي الذي خرج تأصيله في العصر الحديث وأصبح مثار جدل بين المتخصصين.

---

(١) الفيلم الوثائقي بين وهم الموضوعية وواقع الذاتية، أحمد بوغابة مقال ضمن كتاب الفيلم الوثائقي: قضايا وإشكالات (ص: ١٨٧).

أمَّا إذا كان الفيلم موجهًا لفئة عامة الناس فيمكن أن يقتصر على الرأي المشهور، وقد سألت مخرجَ السلسلة الوثائقية (رحلة القرآن العظيم) عن عدم استضافته لبعض الشخصيات كضيوف في البرنامج فقال: لا أُريد أن يخرج البرنامج عن الخط المرسوم له، أو الرأي السائد والمعروف لدى أهل السنة والجماعة، كما لا أُريد آراءً أُخرى تتدخل في البرنامج فتُشكل على المتلقي؛ لأنَّ الشريحة المستهدفة في العمل هم عامة الناس.

٥ ـ يتم النظر في الموضوع من ناحية إشكاليته أو عدمه، فبعض الموضوعات القرآنية لا تمثل إشكالية بل هي من المسلَّمات التي لم يقع فيها خلاف، فمثل هذه يكفي فيها مجرد السرد التاريخي فحسب، وبعضها يُعد إشكالية تحتاج إلى عناية وبيان الحقيقة فيه كما هو الحاصل في ما يُسمى بالإعجاز العددي.

٦ ـ البحث في مدى توفر المادة الأرشيفية للموضوع من مخطوطات أو صور أرشيفية، أو آثار لمكان معين، أو شهود عيان من الشخصيات التي لها علاقة بهذا الموضوع ونحو ذلك، كإنتاج فيلم حول المصاحف المنسوبة إلى عثمان بن عفان (رضي الله عنه) الموجودة في بعض البلدان الإسلامية، والتحقيق في صحة نسبتها إليه.

فمثل هذا الموضوع قد تتوفر لدينا مادة أرشيفية تتمحور حول وجود هذه المصاحف المخطوطة، وكذلك شهود العيان من المتخصصين والعارفين في تاريخ الورق والخط العربي الذين باستطاعتهم معرفة الزمن التقريبي الذي كتبت فيه هذه المصاحف، لذا ينبغي الوقوف على هذه المصاحف وتصويرها، وكذلك الشهود وإلاَّ أصبح العمل ناقصًا.

٧ ـ أنَّ بعض الموضوعات تتفاوت مادتها العلمية طولًا وقصرًا، وعلى هذا فإنَّ المدة الزمنية قد تختلف من فيلم دون آخر، فبعض الموضوعات ممكن أن تكون في فيلم يستغرق مدته (٧) دقائق، وبعضها في (١٣) دقيقة، وبعضها في (٢٣) دقيقة، وبعضها في (٥٠) وهكذا، حسب الموضوع ومدى شُعَبه وفروعه.

٨ ـ يتم النظر في الموضوع هل هو تاريخي/ قديم كموضوع القرَّاء القدامى، أو خطاطي المصاحف القدامى ونحو ذلك أم أنَّ الموضوع معاصر يتناول قضايا قرآنية معاصرة كحلقات تحفيظ القرآن الكريم، أو مسابقات القرآن الكريم ونحو ذلك، عند ذلك ستكون المعطيات مختلفة بين النوعين، وستختلف أدوات التناول من ناحية إخراج الفيلم.

فالموضوع التاريخي قد تكون معالجته غالبًا عن طريق الدراما وذلك بإعادة الموضوع بتمثيل أبرز الأحداث الحاصلة فيه، إضافة إلى بقية تقنيات الفيلم كالجرافيك، والتعليق، والحوار ونحو ذلك.

بينما نجد بعض الأعمال الوثائقية التي قامت بإنتاج سلاسل حول سير قرَّاء القرآن الكريم في العصر الحديث كسلسة (أصوات من السماء)، (القرَّاء)، (يوم في حياة قارئ)، (ورتل القرآن) وغيرها قد تم تركيز الفيلم من خلال تصوير القرَّاء أنفسهم لكونهم مازالوا على قيد الحياة، بل حتى الذين فارقوها يتم الاستعاضة بأرشيفهم وشهود أبنائهم وتلاميذهم.

رابعًا: مكونات الفيلم الوثائقي:

حتى يخرج الفيلم الوثائقي بصورة جيدة، ويعطي ثماره المرجوة

لابد من أن تتوفر فيه مكونات مهمة من الممكن أن نعتبرها أركانًا، إذ بدونها تفشل فكرة الفيلم الوثائقي، ومن أهم هذه المكونات الآتي:

١ ـ **الشخصيات**: وهم الأشخاص الذين تتم استضافتهم ليبدوا وجهة نظرهم في الموضوع لكونهم متخصصين فيه، أو لكونهم شهود عيان على حادثة أو حقبة زمنية معينة.

ويُفترض أن تترك هذه الشخصيات تتحدث على طبيعتها وسجيتها دون أن نتدخل في أسلوبهم وطريقة كلامهم، حتى ذلك يُعطي الفيلم مصداقية وبعدًا عن التكلف، مالم يكن في حديثهم تعدِّيًا على الآخرين، أو سوء أدب.

وأذكر أني سجلت لقاء مع أحد الشخصيات المشهورة في أوساط الدراسات القرآنية، فأخذ يتحدث عن تجربته الطويلة في هذا المجال، إلاَّ أنه أخذ يتكلم عن بعض أقرانه وخصومه، فأوقفته، لأنَّ هذه اللحظة ليست مناسبة لنشر الغسيل، إلاَّ أنه كان لطيفًا معي فابتسم وقال: خذ ما شئت ودع ما شئت!

ولذلك ينبغي أن نتعامل مع هذه الشخصيات بهدوء ورفق، حتى لا نُفسد توثيق تجاربهم علينا وتذهب أدراج الرياح.

٢ ـ **الأماكن**: وهي التي لها علاقة بالدراسات القرآنية، فإذا كان الفيلم مثلًا يتحدث عن الوحي فإنه ينبغي أن يكون غار حراء من أهم الأماكن التي يتم تصويرها لكونه المكان الأول الذي نزل فيه الوحي على النبي ﷺ، وكذلك جبل الطور بوصفه المكان الذي كلَّم الله فيه موسى عليه السلام وهكذا.

٣ ـ الوثائق والمستندات: وتشمل الكتب، أو المستندات الأرشيفية التي لها علاقة بالموضوع، فإذا كان الفيلم يتحدث عن أحد المفسرين مثلًا فإنه ينبغي أن يتم عرض كتابه في التفسير؛ لأنه بقية آثاره، ودلائلُ نتاجاته.

ونجد مثلًا سلسلة (المُجَازون) الوثائقية عبر قناة الفجر الفضائية، التي تتناول سير أبرز قرَّاء القرآن الكريم المجازين من قبل مشايخهم في العصر الحديث، فإنَّ ورقة الإجازة التي مُنحت للطالب تعد من أهم الأوراق الأرشيفية التي يجب عرضها، والحديث عنها في الفيلم؛ لكونها وثيقة مهمة للموضوع.

٤ ـ الصور الفوتوغرافية، ومقاطع الصوت، والفيديو: التي لها علاقة بالموضوع، وهي ما تسمى عند الإعلاميين بـ(material)، فإذا أردنا أن نصنع فيلمًا وثائقيًا لمفسر أو قارئ أو غير ذلك، فإنه ينبغي أن نبذل الجهد في الحصول على مثل هذه الأمور، حتى لو اضطر الأمر إلى شرائها؛ لأنها تعطي الفيلم قوة في التوثيق، وأكثر في التأثير.

فلنتخيل فيلمًا وثائقيًا للقارئ عبدالباسط عبدالصمد بلا مقاطع صوتية، أو فيديو، بالرغم من إمكانية الحصول عليها، فإنَّ ذلك سيعطي ضعفًا للفيلم لا محالة.

وأذكر أني طلبت من أعضاء إحدى المنتديات الإلكترونية صورة للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ)، وقد كنت وقتها في طور إعداد فيلم وثائقي حول (تاريخ التفسير القرآني في السعودية)، إلا أنَّ

الردود قد انهالت عليَّ بحرمة ذلك، وأنه من الأمور التي لا فائدة من ورائها!

وجميع هذه المكونات تعتبر وثائق متفرقة مهمة للموضوع يتم جمعها كلها في قالب واحد، وتأطيرها ضمن الفيلم الوثائقي، علمًا أنه ليس شرطًا أن تكتمل جميع هذه المكونات في الفيلم، ولكن يتم العمل حسب القدرة والإتاحة.

٥ ـ التعليق: وهو أن يتم اختيار معلق يمتاز بصوت مناسب لطبيعة الفيلم، فيقوم بإلقاء النص على الصورة المعروضة، أو في الخانات التي يجد المخرج صعوبة في التعبير عنها فنيًّا، كما لا بد أن يكون التعليق بقدر الحاجة من دون تكرار بعض الأمور التي يمكن للمتلقي أن يفهمها بدون التعليق وإلا كان من غير فائدة.

ونتيجة للتقنية الفنية الحاصلة في عالم الفن اليوم ومحاولات التطوير والتجديد التي لا تنقطع في العالم الغربي فإننا نلاحظ اليوم اتجاهًا آخر في الأفلام التسجيلية نحو إلغاء التعليق والاعتماد على الصورة والجو العام للصوت، وهو ما يُسمى بـ(موت المعلق) فهذا من شأنه أن يجعل المشاهد يعيش أحداث الفيلم بدون تكلف وكأنه ينظر إلى الحادثة بنفسه ولم ينقلها إليه أحد.

وبعد الانتهاء من تحضير هذه المكونات، فإنه تأتي بعد ذلك مرحلة ما تسمى بـ(المونتاج)، يتم من خلالها وضع هذه المكونات على الجدول الزمني أو خط الزمن وهو ما يُسمى بـ(timeline)، ومن ثم إجراء عملية التقطيع والمزج، واختيار رتم الفيلم مابين البطيء

والمتوسط والسريع حسب نوعية اللقطة وحركتها، ووضع اللمسات الفنية والجمالية للفيلم ونحو ذلك.

خامسًا: بعض التوصيات والأفكار المتعلقة بتوظيف مسائل القرآن الكريم وعلومه من خلال الأفلام الوثائقية:

بعد الحديث حول أهمية توظيف القرآن الكريم وعلومه من خلال الأفلام الوثائقية، والخطوات التي ينبغي اتخاذها قبل الخوض في إنتاج السلسلة أو الفيلم، وكذلك مكونات الفيلم، حرصت أن أكون أكثر عمليًا في طريقة تنفيذ ذلك وفق رؤى واستراتيجيات واضحة، لذا حرصت أن أذكر بعض التوصيات والأفكار:

أولًا: عقد ورشة يجتمع من خلالها بعض المتخصصين في الدراسات القرآنية الواعين لأهمية هذا التوظيف والمدركين لأبعاده، مع بعض الفنيين الإعلاميين كالمنتجين والمخرجين للأفلام الوثائقية ونحوهم، وذلك لوضع رؤية واضحة حول هذه القضية يتم من خلالها الانطلاق نحو التنفيذ، ويمكن عرضها على بعض أصحاب الأموال وصنَّاع القرار.

ثانيًا: أن تقوم أحد الجهات المتخصصة في الدراسات القرآنية وليكن مركز تفسير على سبيل المثال بإقامة جائزة للأفلام الوثائقية في القرآن الكريم وعلومه، ومن أهم أهدافها الآتي:

١ ـ محاولة توثيق كل ما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه.

٢ ـ تشجيع الشباب المسلم على توثيق ما يتعلق بالقرآن وعلومه بلقطاتهم الخاصة.

٣ ـ نشر ثقافة الأفلام الوثائقية لدى الشباب المسلم.

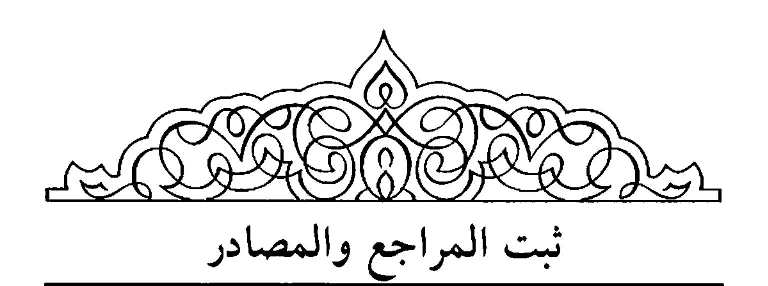
٤ ـ تكوين رابطة شبابية مبدعة في إنتاج وإخراج الأفلام الوثائقية الخاصة بالقرآن الكريم وعلومه.

ثالثًا: أن يقوم عدد من الجهات المتخصصة في الدراسات القرآنية بتنفيذ بعض الأفلام والسلاسل الوثائقية الخاصة بالقرآن الكريم وعلومه، وتكون مناسبة لسياسة الجهة، ثم يتم تسويقه أو بيعه على القنوات الفضائية، وذلك بهدف عرض قضايا القرآن الكريم للمشاهد سواءً كان مسلمًا عربيًا أم غير ذلك، وكذلك هو نوع من التسويق أو التعريف الإعلامي لهذه الجهة.

سادسًا: بعض العناوين المناسبة لأن تكون مشاريع مناسبة لأفلام أو سلاسل وثائقية خاصة بالقرآن الكريم وعلومه:

حاولت استعراض بعض فهارس كتب علوم القرآن القديمة والمعاصرة واستخراج أبرز العناوين التي يمكن أن تكون مشاريع مناسبة لأفلام أو سلاسل وثائقية، ومنها الآتي:

م	العنوان	م	العنوان
١	النقوش الحجرية وعلاقتها بالخط القرآني	٢	الألواح القرآنية. وكيفية الحفظ من خلالها
٣	رسم المصحف	٤	نقط المصحف وتشكيله
٥	زخرفة المصحف	٦	خطوط المصاحف
٧	ضبط المصحف	٨	أقدم المخطوطات القرآنية في العالم
٩	(حكاية مصحف) سلسلة وثائقية، في كل حلقة يتم التعرف على مصحف مطبوع وأبرز الأحداث والأسباب الداعية إليه	١٠	سلسلة وثائقية للتعريف بأبرز مفسري القرآن الكريم
١١	تاريخ القراءات القرآنية	١٢	القرآن الكريم واللهجات العربية
١٣	رواية ورش عن نافع وانتشارها في المغرب العربي	١٤	رواية حفص عن عاصم وانتشارها في العالم العربي
١٥	رواية الدوري عن أبي عمرو وانتشارها في السودان	١٦	رواية قالون عن نافع وانتشارها في تونس
١٧	أثر القرآن في نفوس مستمعيه	١٨	أثر القرآن على سلوك حافظيه أو متدبريه
١٩	قصة جمع القرآن	٢٠	خواص القرآن
٢١	سور القرآن الكريم (أسماؤها ـ عددها ـ معناها ـ مقاصدها...)	٢٢	التغني بالقرآن
٢٣	مواقع الأنبياء الواردة في القرآن	٢٤	مواقع نزول القرآن
٢٥	المستشرقون وموقفهم من القرآن	٢٦	مسابقات القرآن الكريم في العالم الإسلامي



ثبت المراجع والمصادر

١ ـ الإتقان في علوم القرآن، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ـ المدينة المنورة، ط١، (١٤٢٦هـ).

٢ ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط ١٧، (٢٠٠٧م).

٣ ـ الأفلام التسجيلية ورصد الحياة العراقية بعد الاحتلال، د. عمر راغب زيدان، بحث منشور في مجلة حضارة، التابعة لمركز الأمة للبحوث والدراسات الاستراتيجية ـ دمشق. العدد الثاني سنة (١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م).

٤ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر ـ بيروت، ط ٢، (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

٥ ـ تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر ـ القاهرة، ط١، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م).

٦ ـ تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ـ القاهرة، (١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م).

٧ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل محمود الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث ـ بيروت.

٨ ـ طبقات المفسرين، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٩ ـ طبقات المفسرين، محمد بن علي الداودي (ت: ٩٤٥هـ)، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة ـ القاهرة، ط ٢، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م).

١٠ ـ الفيلم التسجيلي، محمود سامي عطا الله، الهيئة المصرية العامة للكتاب، إصدار رقم: ١٨٨.

١١ ـ الفيلم الوثائقي: قضايا وإشكالات، مجموعة مقالات لعدد من الباحثين، إعداد. قناة الجزيرة الوثائقية ـ الدوحة، ط١، (١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م).

١٢ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، وابنه محمد.

١٣ ـ المحرر في علوم القرآن، د. مساعد بن سليمان الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي ـ جدة، ط١، (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م).

١٤ ـ معجم الأدباء، ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط١، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣م).

١٥ ـ معجم الفن السينمائي، أحمد كامل، د. مجدي وهبه، ط١، (١٩٧٣م).

١٦ ـ معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبدالحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ) وفريق عمل، عالم الكتب ـ بيروت، ط١، (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م).

١٧ ـ معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١، (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).

١٨ ـ معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل ـ بيروت، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

١٩ ـ معجم المفسرين، عادل نويهض، مؤسسة نويهض للثقافة ـ بيروت، ط١، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).

٢٠ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني، دار المعرفة ـ بيروت، ط ١، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

٢١ ـ النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز (ت: ١٣٧٧هـ)، عناية عبدالحميد الدخاخني، دار طيبة ـ الرياض، ط١، (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

٢٢ ـ وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خَلِّكان (ت: ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت.

القنوات التي تم التواصل معها

١ ـ قناة العربية.

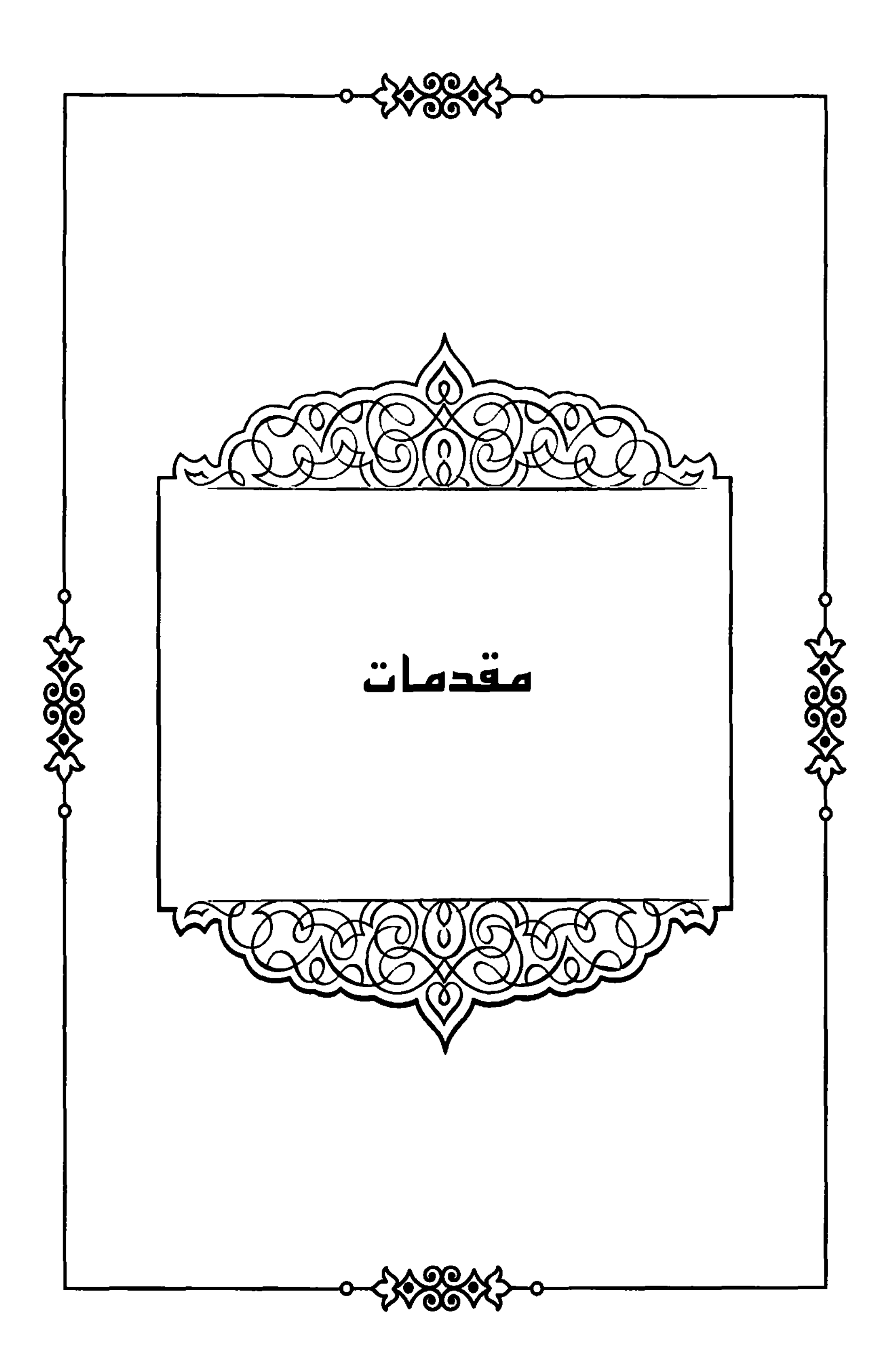
٢ ـ قناة الجزيرة الوثائقية.

٣ ـ قناة المجد.

٤ ـ قناة الفجر.

٥ ـ قناة أهل القرآن.

٦ ـ لقاء مع المهندس فراس قنوات، مخرج السلسلة الوثائقية (رحلة القرآن العظيم).



مقدمات



الفيلم الوثائقي في رحاب القرآن الكريم

نحو رؤية جمالية إنسانية

● د. الحبيب ناصري ●
أستاذ باحث/ ناقد سينمائي/ المغرب

قبل البدء:

يشكل الفيلم الوثائقي في زمننا هذا المرهون بعولمة[1] مخيفة ومرعبة وهادفة إلى «تبضيع» الإنسان، أداة خصبة لطرح مجموعة من الرؤى، الهادفة إلى تصحيح العديد من التمثلات الخاطئة عن ذواتنا العربية والإسلامية والإنسانية ككل، ناهيك عن كونه، وسيلة قوية لترسيخ قيم روحية عريقة، وذات بعد هادف إلى نشر المحبة بين الناس جمعاء، ونبذ العنف والتطرف مهما كانت مرجعياتهما السياسية والاجتماعية.

نقول هذا الكلام ونحن نعي، أننا نعيش في عصر أصبحت الصورة، ميزة من مميزاته، المميزة لخصوصياته، إلى درجة أنَّ هناك من أصبح يرهن مفهوم الأمية بكونها مرتبطة أيضًا بمن لا يستطيع تفكيك صورة معينة في

---

(١) للتوسع في هذا المفهوم انظر على سبيل المثال: الفصل من العولمة والثقافة، (ص: ٩ ومابعدها)، عالم المعرفة، عدد ٣٥٤/ السنة (٢٠٠٨م)، تأليف د.جون توملينسون، ترجمة د. إيهاب عبدالرحيم محمد.

سياق معين، فإلى أي حد الصورة اليوم، ومن ثم الفيلم الوثائقي، سلاح عصر من اللازم نشر كيفية فهمها وتحليلها وتركيبها وتأويلها في أفق إنتاج كتابة ثانية على هامش الكتابة الأولى التي تقولها الصورة؟

ثقافة الصورة في سياق مجتمعاتنا العربية والإسلامية:

إذا كان الغرب قد وظف ثقافة الصورة في هدم وترسيخ قيم ونشر قيم أخرى، تنسجم مع منظومة قيمه المادية والاقتصادية والنفعية التي يروج لها بكل الوسائل المتاح له، فكيف هي هذه الثقافة في محيطنا العربي والإسلامي ككل؟

تعددت التجليات المؤكدة والموضحة لطبيعة هذا الوضع الثقافي، في محيطنا العربي والإسلامي ككل، يكفي أن نطل على منظومتنا التربوية، في كل مناحيها ومكوناتها، مما يجعلنا نسرع إلى التأكيد على تعثر إن لم نقل تخلف استعمال هذه الثقافة البصرية، كوسائل منهجية تعليمية/ تعلمية.

نقول هذا الكلام بعد أن تم التأكد منه من خلال العديد من البحوث التي أشرفنا عليها، سواء في شقها النظري أو التطبيقي، ليتأكد لنا ومقارنة مع ما يجري في المنظومة التربوية في الغرب، مدى صعوبة توظيف العربي، والمسلم بشكل عام، هذه الوسائط العصرية في حياته المعرفية والثقافية.طبعًا، كلامنا هذا بعيدٌ كل البعد عن التوظيف التكنولوجي، للصورة من خلال الوسائط المتداولة اليوم، بل غياب نشر ثقافة الصورة كخطاب، نستطيع من خلاله توليد معان و/أو دلالات، ومن ثم تشغيلها كثقافة، هو ما يولد ربما ولع العربي والمسلم بهذه

التوظيفات التجارية والاجتماعية لهذه التكنولوجيا، مما جعلنا سوقًا عالمية مربحة للعالم الغربي المصنع لهذه الثقافة، بل وهو ما جعلنا نتساءل، لماذا لم نستطع أن نتزحزح من سلم «تخلفنا» العلمي والثقافي والمعرفي والرياضي الخ، على الرغم من كل هذه التوظيفات العديدة لكل مكونات التكنولوجيا العصرية المنتشرة في كل بيوتنا العربية والإسلامية؟ضمن هذا السياق ندعو اليوم، ومن موقع ترويج صورة حقيقية عن مجتمعاتنا الإسلامية، وعن ما يجمعنا فيها، وهو ثقافتنا الإسلامية، وكل القيم الروحية التي يسعى بعض الغلاة من الغرب، إلى ربطها ب» العنف»، الذي هو بعيد كل البعد عن رسالة رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، ندعو إلى سن استراتيجية تربوية ترسخ وتعمق صلتنا بثقافة الصورة، وتساهم في صناعتها بشكل يساعدنا على فهم جزء من أسرار هذه العولمة، الناهضة على توظيف تكنولوجيا العصر لصالح القوي اقتصاديًا وماديًا وعلميًا الخ.

الفنون في رحاب مجتمعاتنا الإسلامية:

لن أفكك هذا المكوِّن، في ضوء رؤية فقهية محضة، لكون هذا الأمر أعتبره يدخل في اختصاص أهل الاختصاص في هذا الأمر، لكن ما يمكن تقديمه، هنا يتعلق بمدى قدرة وتشغيل مجتمعاتنا العربية والإسلامية لهذا الشق من زاويته الثقافية والجمالية والإنسانية، من أجل شرح كل العناصر المتعلقة بهويتنا/هوياتنا العربية والإسلامية، والدفاع عنها في زمن ـ كما بينا سالفًا ـ ، يعتمد فيه الآخر على الصورة كسلاح آخر، يضعه ضمن أسلحته التي تفتك بالعديد من أوطاننا العربية والإسلامية الخ.

كانت الفنون، ولا تزال في كل المجتمعات البشرية، فردها و/أو جماعاتها، مشكلة لطبيعة وعي/لاوعي، من هنا شكلت رؤية لذاتها وللآخر.

الفنون إذن لغة أو لغات متعددة المكونات (مسرح، رسم، شعر، رواية الخ)، من الممكن الرهان عليها اليوم، في أفق جعل العالم يتقاسم ولو بعض اللحظات ذات العمق الوجداني الإنساني الذي يحيل الجميع على ما هو إنساني مناف ورافض للغة الحروب والدمار.الفن وفق هذه الرؤية، هو إحساس نبيل، ليس حكرًا على من يوجد في مقدمة التطور الاقتصادي، بل هو ملمح محدد لوجود آدميتنا، مهما احتللنا رتبًا متقدمة أو متأخرة في سلم التقدم، بل من الممكن القول هنا، أنَّ جميع المجتمعات البشرية وفق هذه الرؤية الأنتربولوجية، تتقاسم هذه القيم الفنية الجمالية الإنسانية، بل حتى المجتمعات البدائية، لها لمستها «الرؤيوية» لذاتها وللكون ككل.ضمن هذا الفهم، أتساءل هل استطاعت مجتمعاتنا البشرية في عالمنا «المعولم»، اليوم توظيف هذا العنصر الثقافي والإنساني في جعله قاسمًا مشتركًا، وجب تشغيله في تواصلنا وتقاربنا، لاسيما وأنَّ السياسة أو الاقتصاد، تبعدنا يوميًا عن بعضنا البعض، ويقوي فرضية «استعباد» من يملك لمن لا يملك، بل وتوظيف كل هذه الإمكانات التي وهبها خالق هذا الكون، لتدمير قيمنا الروحية والإنسانية المشتركة، ومن ثم هيمنة منطق الربح وفسح المجال للغة الاقتصاد بمفهومه العالمي المتحكم فيها من طرف القوى الكبرى، بل من طرف الشركات الكبرى التي تخطط اليوم لمفهوم جديد لهذا العالم.

صورتنا الوثائقية... إلى أين؟

لا يتباعد باحثان اليوم في كون الغرب، ومن خلال «ثقافة» هوليود، يسعى دومًا إلى ترسيخ صورة نمطية عنا كمسلمين، صورة العربي أو المسلم القادم من الصحراء، والمبتعد عن المدنية والحضارة، بل والرافض لكل تجديد، والمرتمي في أحضان المتع، خاصة الجنسية. صورٌ روَّجتها أفلام هوليودية عديدة. تكاد نفس الصورة تترسخ في العديد من الأفلام الوثائقية، في ظل تمويل هذه الأخيرة من طرف موارد مالية، هي في قبضة من يريد نشر هذه الصورة عنًّا في عالمنا المشترك هذا. فماذا أعددنا هنا للدفاع عن أنفسنا وتصحيح التمثُّلات الخاطئة عنا؟بل هنا نتساءل، وفق التساؤل التالي، ما هي استثماراتنا المالية والبشرية والتربوية والإعلامية واللغوية والعلمية والثقافية، في هذا المجال؟ قراءة سيميولوجية بسيطة واحدة، لطبيعة حضورنا في هذه الوسائط، يكشف ماذا يعده الآخر عنا من صور نمطية لسنا من أهلها ولا ديننا الحنيف يحث عنها؟ ما العمل؟

الفيلم الوثائقي في رحاب ثقافتنا الدينية الإسلامية:

يشكل الفيلم الوثائقي، باعتباره معالجة خلاقة للواقع[١]، وباعتباره رؤية تحليلية لانشغالات الإنسان في زمن تتكاثر فيه العديد من أشكال الحروب، سواء من موقع حضاري أوديني أو عسكري أو سياسي الخ،

---

(١) الفيلم الوثائقي. مقاربة جدلية، تأليف مجموعة من الباحثين، منشورات الدراسات العربية للعلوم ناشرون، وقناة الجزيرة الوثائقية، ط١، السنة (٢٠١١م) انظر (ص: ١٥ وما بعدها).

في ظل رغبة الغرب بمفهومه السياسي المادي، الباحث عن تحويل بقية الدول خصوصًا الإسلامية، إلى سوق لترويج ثقافته بكل مكوناتها اللغوية والاقتصادية والإعلامية والحياتية الخ. نقول هذا الكلام ونحن نعي، كيفية تحويل هذا الغرب، (مع استثناء أصواته الديمقراطية والإنسانية القليلة المدافعة عن بقية الحضارات والثقافات)، ديننا الحنيف إلى «خصم» جديد، لاسيما مع انهيار المنظومة السوفياتية، وما كان يدور في فلكها. في هذا السياق «ستنشط» ثقافة معادية لقيمنا الإسلامية، في ظل تكاثر وسائل تكنولوجية إعلامية عديدة، كالتلفزيون والإنترنت والسينما بشقيها الروائي والوثائقي الخ. فماذا أعددنا نحن في هذا المجال؟

في الحاجة إلى الفيلم الوثائقي[(١)]:

يشكل هذا الجنس التعبيري/ الفكري/ الثقافي/ الفني/ الجمالي، مدخلًا نوعيًّا من خلاله من الممكن أن نموقع العديد من الإشكاليات التي تواجهنا في علاقتنا مع ذواتنا والآخر ككل، في سياق دولي، أضحى فيه تلقِّي المعلومة و/أو الصورة، سمة مميزة لكينونة هذا العالم، بل هناك اليوم سياسة غربية إعلامية كمية وكيفية، تتحكم في صناعة الرأي الغربي والعالمي ككل.

من هنا تطفو على السطح أسئلة من قبيل: ما هي سياساتنا واستراتيجياتنا الإعلامية والثقافية والتربوية والبحثية/العلمية.. الخ، في

---

(١) انظر: الفيلم الوثائقي العربي - محاولة في التأسيس، الكتاب الثالث، السنة (٢٠١٣م)، من منشورات الجزيرة الوثائقية.

هذا المجال؟ هل من الممكن اليوم ألا نوظف مكون الفيلم الوثائقي، في مكوناتنا الثقافية الإسلامية لإعادة النظر في العديد من الأشكال التي «نسوق» بها مكونات هويتنا الإسلامية وفي مقدمتها القرآن الكريم، الذي يعد رسالة روحية عميقة موجهة لجميع البشر كيفما كانت لغتهم أو لونهم؟ وهل من الممكن الرهان على الفيلم الوثائقي في إفهام عمقه الروحي الإنساني؟ وما يرتبط بهذه الوظيفة الجوهرية الهادفة إلى نشر قيم التعايش والتعاون والتسامح بين جميع أصناف البشر، مهما كانت مستوياتهم الاجتماعية والحضارية؟ومن البداية نقول: لن يتنكر إلا معاكس لنشر قيمنا الإسلامية الحقة والمدافعة عن مقصدية/ إنسانية هذا الكون، عبر جميع الوسائط الإعلامية والثقافية المتاحة اليوم بيننا، باعتبارها إرثًا علميًّا مشتركًا ساهمت فيه كل الشعوب ومهما كانت درجة رقيها العلمي، إيمانًا منا بكون الحضارة البشرية هي أخذ وعطاء.لقد بني الخطاب القرآني الكريم، على عمق رسالته المنزلة على سيدنا محمد ﷺ، باعتباره رسولًا لكل الناس، وباعتباره رحمة للعالمين، ومنقذًا لهم ومخرجًا لهم من الجهل والتخلف الاجتماعي والروحي الخ نحو عالم مملوء بالأمل والطمأنينة، عالم مبني على كرامة الإنسان، وجعله محور هذا الكون الذي سخره الله له. فهل من الممكن إيصال هذه الرسالة بوسائط عصر منتشرة لدى جميع الناس؟ هل من الممكن الكشف عن هذا الإرث القرآني الروحي الجمالي، للآخر على وجه الخصوص، في زمن تتعمق فيه ومن كل الزوايا، علاقة الإنسان بكل ما هو «حيواني/ شهواني» مادي؟هل من الممكن الكشف عن عمق هذا الكتاب الكريم الجمالي، في العديد من مناحي الحياة، في زمن «يسوق» فيه هذا الآخر «عنف»[1] كتابنا الكريم

وبأشكال إعلامية متعددة؟ بل ويوظف كل إمكانيات العصر التكنولوجية، ليوصل رسالة كلها مملوءة بصور كاذبة عن رسولنا المصطفى ورسالته السماوية/ الإنسانية.

في وظائف الفيلم الوثائقي القرآني:

تعددت الوظائف التي من الممكن استنباطها من هذه العلاقة الممكنة بين الفيلم الوثائقي والقرآن الكريم، وظائف تندرج بشكل أو بآخر ضمن الغايات النبيلة المصاحبة لكل تعريف بقرآننا الكريم وبنبينا المصطفى ﷺ، نفضل هنا تقديمها وفق التصورات الآتية:

١ ـ وظيفة تعريفية، ٢ ـ وظيفة دنيوية، ٣ ـ وظيفة أخروية، ٤ ـ وظيفة ترابطية بين الوظيفة (٢ ـ ٣).

ضمن هذه الوظائف من الممكن معالجة العديد من التيمات/ الموضوعات التي من الممكن الاشتغال عليها في سلسلة أفلام وثائقية متعددة. من قبيل:

١ ـ ضمن الوظيفة الأولى:

ضرورة تقديم العديد من القضايا مثل (تسمية القرآن الكريم، أسباب نزوله، طريقة نزوله الخ).

٢ ـ ضمن الوظيفة الثانية:

(١) للتوسع في مفهوم العنف، انظر الأنماط الثقافية للعنف، عالم المعرفة عدد ٣٣٧ مارس (٢٠٠٧م)، تأليف بار برا ويتمر، ترجمة: د.ممدوح يوسف عمران (١/ ٣١ ومابعدها).

من الممكن إدراج كل ما يتعلق بالجوانب الدنيوية الممتعة والمفيدة في حياة الناس.

نقول هذا الكلام ونحن نعي أنَّ قرآننا الكريم، ينهض على رؤية تنظم العلاقات الاجتماعية بين الناس، مثل: (التجارة والبيئة والعلم والأسرة والاقتصاد قصص نبوية ذات بعد دنيوي الخ). صور/ أفكار دنيوية عديدة يطرحها القرآن الكريم، وتعطي الانطباع بكون كتاب الله سبحانه وتعالى، لم يبن على رؤية تهميشية لهذه الدنيا التي هي مطية الآخرة.

٣ ـ ضمن الوظيفة الثالثة:

في هذه الخانة، من الممكن الحديث عن مجموعة من المفاهيم المؤطرة لهذه النهاية البشرية المحتومة، مثل: (الموت، ثنائية الجنة والنار، صورة الجنة في القرآن الكريم، وظيفة الشفاعة، قصص نبوية ذات بعد أخروي إلخ).

٤ ـ ضمن الوظيفة الرابعة:

ضمن هذه الوظيفة، تتجلى توازنات وجماليات القرآن الكريم، يكفي أن نقرأ ما يجري اليوم في عالمنا بل عوالمنا المعاصرة من اختلافات واختلالات بين الناس، سواء في علاقاتنا مع ذواتنا أو عند الآخر أو بيننا ككل. أقصد مدى هيمنة الشق المادي الدنيوي دون استحضار الشق الأخروي، أو العكس. هنا مجالات وموضوعات خصبة لتقديم هذه التوازنات، التي هي اليوم حتمية في حياتنا المعاصرة.

والجمالية، نحن اليوم في أمس الحاجة إليها، لتحقيق تلك

التوازنات النفسية والروحية والمادية والاجتماعية، وهنا يصبح لهذا النوع من الأفلام الوثائقية القرآنية، تلك الوظيفة الجمالية والإنسانية الممتعة والمفيدة والرابطة بين الآن والغد.

طبعًا، نحن قدمنا هنا شذرات عامة مرتبطة، بأهمية توظيف ثقافة الفيلم الوثائقي في التعريف بالقرآن الكريم ووظائفه الجمالية والإنسانية المستمدة من بعده الدنيوي والأخروي، وما يحققه من توازنات نفسية وروحية ومادية، وبكل تأكيد ستتعمق هذه الوظيفة حينما يتم تقديم هذه الأعمال، وفق رؤية إخراجية تعي قيمة الصورة وما تولده من معان ودلالات متعددة، وتوظيفات أرشيفية مادية وحوارات علمية مفككة ومتغلغلة في عمق الآيات والأحاديث النبوية الضرورية إلخ.

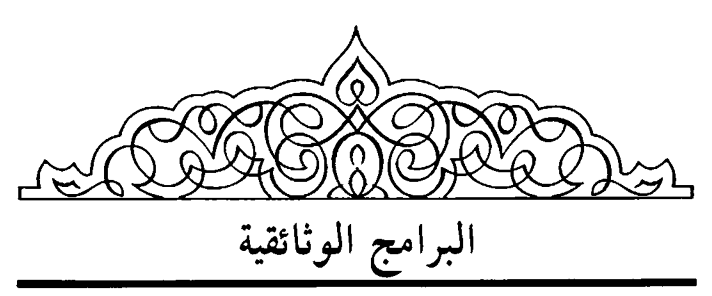
على سبيل التركيب:

لقد سعينا في هذه التكثيفات السطرية، إلى لفت الانتباه، إلى أهمية مكون ثقافي بصري، ويتعلق الأمر بمكون الصورة كلغة جديدة اليوم، في ظل هذا العالم الذي ينمو بشكل مخيف ومرعب، بشكل وظف فيه كل شيء لتحويل قيمنا الإسلامية إلى «معاد لهذه الحضارة الغربية المادية، وبواسطة ثقافية الصورة بشقيها المتداولين بكثرة في شبكات الإعلام العالمي، ونخص هنا السينما الروائية والوثائقية.

طرحنا هنا مرهون بمدى سَنّ استراتيجية عربية وإسلامية، تبدأ بنشرها في منظوماتنا التربوية والتعليمية والتكوينية والثقافية والجمعوية، لتتعمق عبر مهنية إعلامية عالية من المفروض امتلاكها وفق رؤية صناعية

تكنولوجية، تعطى لها أولوية كبرى، عِوَضٌ جعل كل ما سبق ذكره مجرد أنشطة موازية وثانوية في الجامعات والمدارس الخ.

وظائف ربط الفيلم الوثائقي بالثقافة الإسلامية ككل، والقرآن الكريم على وجه الخصوص، وما يدور في فلكه من علوم وقيم جمالية وإنسانية الخ، مشروع ثقافي نهضوي تربوي حقيقي، لابد من صياغته كمشروع مجتمعي، بل هنا من اللازم في التفكير، بربطه بأسئلة البحث العلمي والثقافي والفكري على امتداد أوطاننا العربية والإسلامية.



البرامج الوثائقية
والتوظيف الأمثل لخدمة القرآن

● د. مالك بن إبراهيم الأحمد ●
أكاديمي وإعلامي/ السعودية

في هذه الورقة سأناقش كيفية توظيف البرامج الوثائقية لخدمة القرآن الكريم وعلومه، سأتحدث عن الآليات الفنية الضرورية للأعمال الوثائقية كي تؤدي هذه البرامج دورها كما سأتحدث عن الميادين المناسبة التي يمكن توظيف الأفلام الوثائقية من خلالها، أيضًا سأشير إلى تجارب عالمية في توظيف الأفلام الوثائقية في خدمة قضايا هامة سواءًا محلية أو عالمية، وسأختم بأن البرنامج الوثائقي بأشكاله المختلفة وأساليبه المتعددة يمثل إحدى الوسائل الممتازة للتعريف بالإسلام وإيصاله لعموم الناس وإقناعهم به بشكل ممتع وغير مباشر.

البرامج الوثائقية:

تعرف البرامج الوثائقية بأنها مادة برامجية تلفزيونية توثق شيئًا أو حدثًا أو مكانًا أو شخصية أو شعبًا أو طائفة أو تكتلًا أو قضيةً أو حتى قيمة مجتمعية في القديم أو الحديث.

تعتبر البرامج الوثائقية من النوع المعرفي التثقيفي وتتميز بأنها تجمع بين المتعة البصرية والمادة المعرفية المعلوماتية. البرامج الوثائقية مثَّلت فتحًا في العصر الحاضر حيث استطاعت أن تنقل المعرفة والعلوم إلى طبقات وشرائح واسعة من الناس في الوقت الذي كانت العلوم والمعرفة والثقافة قاصرة على فئة المتعلمين أو المتخصصين.

البرامج الوثائقية مثَّلت ثورة في الإنتاج التلفزيوني عند بدء ظهورها حيث كانت البرامج التلفزيونية قاصرة على الدراما كالأفلام والتمثيليات أو المسلسلات أو برامج المنوعات أو البرامج الأخبارية.

تتنازع المواد التلفزيونية من الأخبار والتسلية والرياضة، أما المعرفة والثقافة فقد كانت قاصرة على بعض البرامج الحوارية الجافة التي يستضاف فيها المتخصصين من العلماء أو المثقفين وكانت مملة من جانب ولاتمثل أهمية لشريحة واسعة من الناس.

كانت الفكرة التي تدور في أذهان القائمين على الإنتاج التلفزيوني كيف ننقل العلم والمعرفة إلى كافة شرائح الناس مستفيدين من الانتشار الواسع لجهاز التلفاز في كل المنازل.

في البداية عند الرغبة بالتعريف بشخصية أو موضوع مقابلة العديد من الأشخاص ذو العلاقة في أماكن متعددة وفي ظروف تصوير متباينة لكسر الملل وإعطاء بُعد جديد للمشاهد كي يتقبل المادة الجافة نسبيًا.

تطورت العملية خصوصًا مع توافر مادة إرشيفية مصورة عن أحداث هامة مثل الحرب العالمية الثانية فكان الجهد الوثائقي هو في الربط بين الصور من خلال سيناريو متكامل يحكي قصة الحدث بالتوظيف الشامل

للمادة المتاحة، طبعًا تضمن الأمر مقابلات مع شخصيات عاشت الحدث أو شاهده عليه بما يعطي مستوى عال من الموضوعية والمصداقية.

النقلة النوعية الأحدث في البرامج الوثائقية هي إعادة بناء الصور المفقودة، بمعنى عندما يتم الحديث عن سور الصين ومعجزة بنائه يتم تمثيل العملية لتقريب الصورة للمشاهد وإعطائه تصورًا حقيقيًّا عن المعلومة حتى بالنسبة للأحداث كالمعارك والحروب يتم تصوير مشاهد كاملة لها مثلًا بنفس الأدوات والأزياء التي يلبسونها في ذلك الوقت كي يعطي المشاهد صورة قريبة جدًا من الحدث أو الواقعة بعيدًا عن الوصف اللفظي الخيالي.

تطورت البرامج الوثائقية من حيث الأهداف، حيث كانت في البداية نشرًا معرفيًّا بسيطًا بطريقة جديدة مُمِلَّة، وبالتالي كانت في ترتيب العرض في المؤخرة، وكانت تعرض في الأوقات الميتة آخر الليل، أو أول الصباح حيث تقل المشاهدة؛ لسبب بسيط أن القائمين على القنوات كانوا يعتقدون أن حفنةً يسيرةً من المشاهدين من يهتم بهذا النوع من البرامج!!

بعد ذلك تحسن مستوى إنتاج البرامج الوثائقية وبدأت القنوات وشركات الإنتاج التلفزيوني تغدق على الإنتاج ووظفت أحدث تقنيات الإنتاج، وصارت مادةً ممتعةً ومشوقةً بصريًّا ومعرفيًّا فجلبت جمهورًا جديدًا يبحث عن الإمتاع ومعه فائدة.

انتبهت الشركات الكبرى للتحول في أذواق المشاهدين وقبولهم

للبرامج الوثائقية فأنشأت قنوات وثائقية بالكامل ومن أشهرها ديسكفري وناشيونال جيوغرافي الأمريكيتين.

مع ازدياد القبول لهذه القنوات زادت مساحة البرامج الوثائقية، فأصبح هناك تخصص فرعي فهناك قناة الحيوانات وقناة الطبيعة وقناة الاكتشافات وقناة المغامرات وقناة العلوم وهلم جرًّا.

هذا النجاح المتواصل جعل البرامج الوثائقية ضمن البرامج الرئيسية في بعض القنوات، كما توسعت في القنوات الوثائقية، علمًا بأنَّ أغلب القنوات الوثائقية بالاشتراك وليست مجانية البث، وأصبحنا أمام ظاهرة جديدة: الدفع مقابل المعرفة! لكن أي معرفة؟ إنها معرفة الإمتاع التي سحرت الأعين وأقنعت المشاهد، فلم لا يدفع مقابل ذلك؟!

تحولت البرامج الوثائقية من الأهداف المعرفية البحتة إلى الأهداف التجارية حينما تلقَّفتها الشركات الإعلامية الكبرى وتحولت إلى صناعة إعلامية من الوزن الثقيل، مثلها مثل الأفلام والرياضة لكن الفائدة والمعلومة حاضرة.

بالطبع لا ننسى الأهداف الاستراتيجية التي تم من خلالها توظيف الأفلام الوثائقية لخدمة أغراض سياسية للدول، كعرض الحرب العالمية الثانية من وجهة نظر غربية أو غزو العراق أو القضية الفلسطينية أو الأمم والشعوب، كاليهود وما تعرضوا له من ظلم، وحتى في السياحة مثلًا، تم توظيف هذه الأفلام للترويج لدول عنصرية مغتصبة كإسرائيل أو مناطق مغمورة لاتمثل أهمية عالمية.

ولا ننسى أنَّ بعض الأفلام الوثائقية التي قدمت رؤية مغايرة للرواية

الرسمية السائدة كـ(١١) سبتمبر لـ(مايكل مور) حيث تعرض الفيلم للهجوم الشديد وكذا مخرجه تعرض للتهديد. أخرج نفس المخرج فيلمًا آخر بعنوان: «الرأسمالية» قصة حب عرض للجانب الأسود من الاقتصاد الأمريكي وارتباطه بالرأسمالية، هذا المخرج صنف ضمن أهم (١٠٠) شخصية الأكثر تاثيرًا حول العالم مثله مثل بعض الرؤساء وكبار رجال الأعمال لما لأفلامه الوثائقية من تأثر هائل.

من النقلات الجديدة في الأفلام الوثائقية أنها ـ بناءً على النجاح الذي حققته على شاشات التلفاز ـ نقلت إلى صالات العرض السينمائية منافسة للأفلام.

مع اتساع القبول بدأت البرامج الوثائقية وقنواتها المتخصصة تنتج نسخًا باللغات المختلفة لإرضاء أكبر شريحة من المشاهدين حول العالم ليس من خلال الترجمة، بل الدبلجة حيث سهولة ومناسبة التواصل مع الصورة المعرفية.

القرآن والبرامج الوثائقية:

القرآن كلام الله ودستور المسلمين حريٌّ أن يحصل على اهتمام مناسب من خلال التقنية الحديثة في الإعلام ومنها البرامج الوثائقية.

إنَّ خدمة القرآن من خلال البرامج الوثائقية يشبه إلى حدٍّ كبير خدمته في الطباعة والترجمة والتوزيع.

كما خدم القرآن بالتفسير وما يرتبط به من علوم متعددة فإنَّ البرامج الوثائقية يمكن أن تساهم إلى حد كبير في خدمة القرآن: من خلال التعريف بالرجالات الذين خدموا القرآن، بالقرّاء الذي طبقت شهرتهم

الآفاق، بالعلماء الذين انكبوا على درسه وتوضيح كلماته ومعانيه، بالقرّاء الأعاجم الذين لايعرفون العربية لكنهم يتقنون قراءة القرآن، بالأطفال الذين يحفظونه وهم لم يتقنوا القراءة والكتابة، بالشباب الذين أصبح ديدنهم القرآن تعلمًا وتعليمًا من خلال حلقات التحفيظ، بالرجال الذين أفنوا عمرهم وجهدهم لإنشاء وإدارة حلقات القرآن والصرف عليها.

يمكن من خلال البرامج الوثائقية التعريف بالأقوام والأمم السابقة التي ذكرت في القرآن، يمكن أيضًا عرض قصص أتى على ذكرها القرآن كأصحاب الكهف وذي القرنين ويأجوج ومأجوج.

قصص الأنبياء أيضًا يمكن أن تعرض دون الاضطرار لتمثيل الأنبياء بل البرامج الوثائقية هي الأنسب للتعريف بالرسل في صيغة آمنة شرعيًا خلاف الافلام السينمائية حيث الحاجة الماسة لعرض الشخصيات.

البرامج الوثائقية يمكن أن تعرض الأماكن التي تحدث عنها القرآن كالجبال (أحد) أو قبور ثمود مثلًا.

من خلال البرامج الوثائقية يمكن أن نحكي قصة جمع القرآن والقراءات المختلفة وسبب تباينها ونزوله على سبعة أحرف.

الكثير من أحداث السيرة سطَّرها القرآن يمكن أن نجتزئ بعضًا منها ونقدمه على شكل حلقات: مكة قبل الإسلام / بداية الدعوة / الهجرة إلى الحبشة وغيرها الكثير.

من خلال البرامج الوثائقية يمكن أن نتكلم عن المصحف والخطوط

المستخدمة وأقدم النسخ وحتى الورق والحبر المستخدم وهل بقيت نسخ من مصحف عثمان (رضي الله عنه) وما مدى صدقيتها؟

أيضًا بعض أحكام الأسرة في الإسلام التي سطرها القرآن مفصَّلة يمكن أن تعرض وثائقيًا.

ضوابط توظيف الأفلام الوثائقية لخدمة القرآن:

البرامج الوثائقية عالم رحب ومتنوع ومناسب لخدمة القرآن لكن ماهي الضوابط والأساليب التي ينبغي استحضارها عند التعامل وثائقيًا مع القرآن وما يخدمه؟

- من المهم استحضار عظمة القرآن وقدسيته وبالتالي الدقة والأمانة والموضوعية عند عرض أي قضية ذات علاقة به.

- البعد عن تمثيل الأنبياء والخلفاء الراشدون لما وقر في النفوس من تعظيم في حقهم.

- ألا يقدس أو يمجد البرنامج مكانًا لم يقدسه الإسلام.

- أن يكون البرنامج يقدم مادة معرفية جديدة، أو يقدم مادة معرفية بصيغة جديدة مشوقة.

- أن يستحضر ضوابط المواد الدينية بعامة من حيث البعد عن المبالغة والكذب.

- في الجانب الفني ينبغي أن تقدم هذه البرامج بناءً على الأصول المعتبرة من حيث جودة التصوير والكاميرات المناسبة والإخراج الراقي والمؤثرات البصرية والجرافيك وإن احتاج مشاهد تمثيلية أن تكون على

مستوى عال من حيث جودة الممثلين ومناسبة النص وتوافقه مع السياق العام، أيضًا أن تكون الشخصيات المستضافة ذات علاقة بالموضوع وذات قدرة معقولة في التواصل البصري.

ـ أن يقوم على الإنتاج فنِّيون محترفون ومتخصصون حتى يعطوا الموضوع حقه وأن تكون خدمة القرآن نصب أعينهم بعيدًا عن المصالح المالية.

ـ أن تتوفر ميزانيات معقولة وليست متقشفة فتفسد أكثر مما تصلح وتضر أكثر مما تنفع.

ـ أن يعد المادة مختصٌّ في مجاله ولا تترك للدخلاء وغير المتخصصين، وأن يقوم بكتابة السيناريو من له إلمام بهذه النوعية من البرامج وعلى دراية جيدة لأنه يحول النص إلى صورة.

ـ بعض الموضوعات قد تكون تقليدية وهذه يمكن معالجتها من خلال الزاوية الجديدة والأسلوب المبتكر لشد المشاهد وإقناعه.

ـ قد يكون هناك صعوبة في تصوير بعض الأماكن أو إحياء بعض الأحداث فيمكن الاستعانة بأرشيفات القنوات التلفزيونية المحلية أو العالمية.

ـ بعض الموضوعات تتطلب حذرًا شديدًا في أسلوب التناول إما لارتباطها بشخصيات لا يمكن عرضها كالأنبياء أو أماكن اندثرت مثل الخندق وهنا يستعان ـ ما أمكن ـ بالرسومات التوضيحية والجرافيك المتحرك للتعويض عن الصورة الأصلية أو المطلوبة.

ـ بعض الموضوعات تتطلب جهدًا بحثيًّا ضخمًا مع التنقيب في

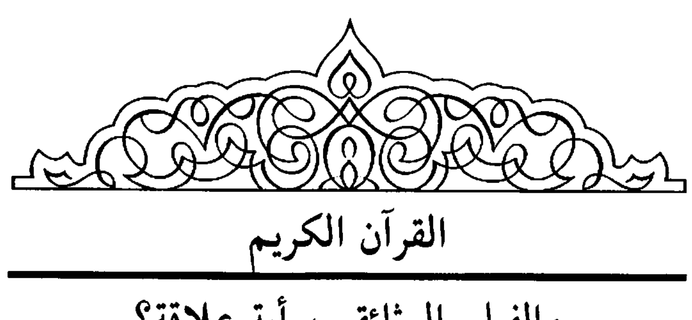
الملفات والكتب والأرشيفات الوطنية والوثائق وهذا يتطلب فريقًا متخصصًا من أهل التاريخ يعكف على الجمع والمقارنة والتحليل فضلًا عن مقابلة أهل الاختصاص مما يتطلب اهتمامًا خاصًا وجهدًا غير تقليدي.

- أن يعتمد البرنامج على الصورة وليس الكلمات وأن «يمتع» بصر المشاهد حتى يقنعه «عقليًا» ويفيده «معرفيًا».

- أن يجمع البرنامج مجموعة من أساليب العرض المصورة لإمتاع المشاهد وإبعاد الملل عنه: مقابلات مع العديد من الشخصيات المتباينة في أماكن وظروف مختلفة، مشاهد تمثيلية مناسبة، ما أمكن، تصوير حي متنوع للأماكن ذات العلاقة بالموضوع، صور ثابتة للأشخاص والوثائق والكتب والأدوات وغيرها.

إنَّ إنتاج البرامج الوثائقية أصبح صناعة متقدمة يشارك فيه فريق من أهل الاختصاص علماء ومعدين وأهل خبرة وليس فقط مقابلات عجلى مع البعض من ذوي العلاقة.

ختامًا: إن إنتاج برامج وثائقية لخدمة القرآن لهو من الجهاد الثقافي وأثره باق ومستمر ونتائجه غالبًا ممتازة إذا أُحسن الإنتاج وزيد في الإنفاق وكُلف بالعمل أهل الخبرة والدراية.



القرآن الكريم

والفيلم الوثائقي، أية علاقة؟

● د. عبدالله أبوعوض ●

أستاذ الفيلم الوثائقي في جامعة عبدالمالك السعدي/ المغرب

القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى غير مخلوق، المنزَّل على النبي محمد ﷺ باللغة العربية المعجزة المؤيدة له، المتحدى به العرب لإثبات النبوة والعالم لإثبات الرسالة الخاتمة المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر، وهو مصدر الاستقرار الروحي والانتعاش الفكري والتذوق الوجداني، اجتهد العلماء في كل تفاصيله كل حسب تخصصه ليبرهنوا بالحجج العلمية والأدلة الدامغة على قوته وجماليته من بداية نزوله إلى يومنا هذا، مما يعني أنَّ الجهد الفكري والعملي المستفرغ في خدمته لن يقابله جهد آخر معاصر لتراكم التمحيص والتدقيق في التعامل معه عبر قرون عدة، فكانت مدارس تفسيره آية في المناهج العلمية من حيث تفسيره بالمأثور أو الإشارة أو البيان اللغوي... والآن بعض الاجتهادات المقرونة بتخصصات أصحابها كالإعجاز العلمي وغيره... لكن هذه المدارس صارت على منهج محدد وفق ما تقتضيه آداب البحث العلمي

في علوم القرآن مع الاستعانة بالمناهج المعاصرة دون أي حرج أو لبس[١].

لقد أخذ القرآن الكريم عناية وجهدًا خاصًا سواءً من الناحية النقلية أو العقلية، باعتبار أنَّ طبيعة التعامل معه كانت تختلف في منهجها بين النقل والعقل، فالنقل ثابت في الشكل المقرون بوسيلة تفسير القرآن بالقرآن والسنة النبوية، ومظان هذا الشكل يتبين في تفسير النص بالنص، أما من حيث العقل فهو حاضر وثابت في الوسيلة والتفعيل في كل من تفسير القرآن بالقرآن وتفسيره بالسنة واجتهاد الصحابة والتابعين واللغة العربية. فالعقل هو أداة عملية ووظيفية لكن بإرادة تقعيدية تأصيلية غير مجردة، وهو خاضع لمنهج الاستقراء والاستنباط دون جرد آليات ومحددات ووسائل التعامل مع القرآن الكريم. ومنهج التفسير بالمأثور إن عرف نوعًا من الجمع في مراحل تاريخية يمكن أن تعتبر في نظر البعض أنها حدَّت من العملية العقلية، فإنَّ بيان الآليات المعتمدة في صياغته منذ القرون الأولى تبقى إرادة منطوية في العملية العقلية المؤسسة لهذا المنهج، وهذا كله يحيل على أنَّ القرآن الكريم كتاب مقدس لكنه مفتوح للدراسة يحمل في نصوصه احتمالات لا متناهية من التأويل والتوليد، وهذه الخاصية كعنوان تفيد بأنه يستكشف المستقبل ويستجيب لضرورات الحاضر وأن هدايته حاضرة ومواكبة لكل مستجدات العصر، وأنَّ القرآن الكريم عنوان التنمية المستدامة للأمة

---

(١) عبدالله أبوعوض، القرآن الكريم والسفسطائيون الجدد، جريدة المساء المغربية، عدد ١٢٥٩، الجمعة ٨/ ١٠/ ٢٠١٠م.

الإسلامية لكن بقراءات تقعيدية بعيدة عن التنزيلية والإسقاطية الذاتية المفرغة أو الأيديولوجيات الحاملة المغرضة[1]، وحتى لا نقع فيما يقارب ذلك من أي زاوية، أو اعتماد التكليف في تقريب موضوع القرآن الكريم والفيلم الوثائقي، فإنَّ القرآن الكريم هو الكفيل بالإجابة عن هذه العلاقة من خلال الكون المنظور، فما هي زاوية القرب في الموضوع؟

* القرآن الكريم وسؤال المنهج:

لا ينكر أحد أنَّ القرآن الكريم يكابد مجموعة من التحديات على مستوى الداخل مقدار ما يكابده من التحديات على مستوى الخارج، والتحديات الداخلية لا تخرج عن كونها قائمة على ثلاثة أبعاد:

الأول: يكمن في أهل حفظه وتداوله بالمنهج الاستهلاكي المتداول الموروث، وهي إما وارثة أو مورثة لقدسيته الصورية مع إغفال قدسيته العلمية والعملية.

الثاني: يكمن في أهل رفضه ومحاربته بالمنهج الأيديولوجي المشكك وهي ذات الأفكار الغوغائية الفوضوية الرافضة لكل مقومات القبول العلمي الثقافي الإسلامي الإنساني المنضبط والمشترك.

الثالث: يكمن في أهل الجهل بأحكامه ومناهج المختصين المتعاملين مع نصوصه (علماء القرآن) وهي إما ذات جهل عفوي ومن

(١) عبدالله أبوعوض، النصوص القرآنية والقراءات المعاصرة...رؤية نقدية، مجلة صدى أنجرة، العدد الأول، (٢٠١٢م)، (ص: ١٠١).

ثم وجب التوجيه والمحاورة، وإما ذات جهل مركب وهي المطلعة على هذه المناهج غير أنها متنكرة أو رافضة لها.

أما التحديات الخارجية فهي تتوافق كذلك مع الداخلية وتكملها، وتقوم على بعدين.

الأول: يكمن في أهل قراءة نصوص القرآن الكريم من ذوي القريحة العلمية المشبعة بالمناهج الغربية والمعتمدة في تحليلها على واقع معين والمتوافقة مع قناعاتها الهادفة إلى ترسيخ أيديولوجية معينة باسم التنمية، وهي غالبًا ما تتطاول على النصوص القرآنية باسم الاختلاف غير أنه اختلاف معطل.

والفئة الثانية: فهي إما مستخدمة أو مستبلدة بسبب ادعاء الفكر في تحليل نصوص القرآن أو مواجهتها، مغيبة لأدنى مستويات التكليف العقلي والنفسي عناء قراءة هذه النصوص سواء قراءة صورية أو معمقة وهذا بسبب «مفهوم المنهج» الذي أصبح مطية من لامطية علمية له، والمنهج في عصرنا الحالي مصطلح يدل على:

أ: مجموعة الطرق التي يتبعها العقل من أجل اكتشاف الحقيقة والبرهنة عليها.

ب: مجموع الطرق العقلية المتبعة من أجل الوصول إلى غاية.

ج: القواعد التي يتأسس عليها تعليم أو تطبيق فن أو تقنية.

د: وسيلة لوصف الطريق التي يجب إتباعها[1].

---

(١) عبدالله أبوعوض، النصوص القرآنية والقراءات المعاصرة...رؤية نقدية، مجلة صدى أنجرة، العدد الأول، (٢٠١٢م)، (ص:١٠١).

وما دام هذا العصر هو عصر تتوافق فيه إدراكات الاجتهاد البشري بالممكن وسؤال الحاضر من خلال ما هو منهج، فإنَّ لغة الصورة هي من أكثر الرسائل المنهجية في تشكيل وصناعة الرأي العام، إذ مما لا شك فيه أنَّ هذا العصر الذي نعيشه هو عصر الإعلام والاتصال وأنَّ منهج الصورة أكثر تبليغًا وتأثيرًا في توجيه القناعات، وما دام القرآن الكريم كدستور للمسلمين «صالح لكل زمان ومكان» فإنَّ تفكيك هذه القاعدة في راهننا عبر الصورة تكمن بالدرجة الأولى في لون سينمائي هو من رهانات هذا العصر هو الفيلم الوثائقي أو ما يصطلح عليه بالفيلم التسجيلي، وهو يعتمد أساسًا على الوثيقة، عكس الفيلم التخييلي الذي مبناه الخيال.

إنَّ تطور التمييز بين «الفيلم الوثائقي» و«الفيلم الخيالي» في عصر الملتميديا أوحى إلى المهتمين بتدقيق المعنى وتوصيفه، إلا أنَّ ما ينبغي التنبيه إليه أنَّ «التسجيلي» في حمولته الاصطلاحية ليس هو «الوثائقي» بل هو مرادف لمفهوم «التوثيقي»؛ لأنَّ مصطلح التسجيل في اللغة العربية هو من دلالات كلمة «تدوين» «تدوين الشيء وكتابته» ويقترن بمصطلح «السجلات»، في حين أنَّ «الوثائقي» هو من مصطلح «الوثيقة» و«الوثيقة» لا يمكن إقرار كونها وثيقة إلا بعد معرفة ما «دوّن فيها وسجل» هل هو في مصاف الوثائق أم أدبيات خيالية عامة قد تكون للاستئناس، بمعنى أنَّ بعد التسجيل يأتي التوثيق لذا يمكن الذهاب إلى تبني «الوثائقي» في عالم السينما على أنه «النقل الخلاق للصورة» أو «تشخيص الوثيقة بالصورة الخلاقة». وعمومًا وفي إطار مفهوم «المجال التداولي» في عالم السينما والفن، يمكن أن يصطلح عليه تداوليًا

بالتسجيلي والوثائقي، شرط أن يخضع لضوابطه العلمية والعملية التي تحكمه.

إنَّ الوثيقة هي العدو المباشر للنسيان والإهمال وخاصة أنها خاضعة لمنطق «الحفظ» و«الأرشفة»، كما أنها تسمح بالعودة إليها لإعادة قراءتها عباريًا «صوريًا» ودلاليًا «رمزيًا» ومن تم تأويلها بحسب طبيعة الإسقاطات المعرفية التي تحكم متداولوها، وتوثيق الصورة المصاحبة بالصوت هو توثيق للذاكرة التأصيلية المشهدية التي يكون الرجوع إليها بمثابة معايشة الحدث في حينه كما هو «وإن كان الغرض من التوثيق عمومًا هو بقاء ما يوثق على أصله دون خضوعه إلى مركبات خيالية تخرجه عما هو عليه» دون الاجتهاد المبدع المفضي إلى خروج الحقيقة إلى المتخيل.

لقد مكَّن علم الاتصال من الوقوف على أشكال كثيرة في توثيق الصورة، وعلى رأس طبيعة هذه الأشكال جاء ما يعتبر المرجع الوحيد للتوثيق في بنائه الفني ألا وهو الفيلم الوثائقي «التسجيلي».

* لماذا الفيلم الوثائقي والقرآن الكريم:

الفيلم الوثائقي في ثقافة الإبداع هو «عرض الشيء كما هو» مما يعني التخلق بأخلاق «النقل المصدق» حتى يبقى للخصوصية الوثائقية مجالها دون ضرب في مناهجها ومبادئها، وهذا ينعكس على الصورة وثقافتها انعكاسًا إيجابيًّا يميزها عن غيرها من الصور الخيالية، ويقع في بعض الأوقات أنَّ الوثائقي ينجرف على يد بعض الثقافات للتحايل على مركباته لإخراج صورة «ما يجب أن يكون»، كما نرى الكثير من الأفلام

الوثائقية تعيد طرح مواضيع سبق معالجتها في مجموعة من السلسلات تكون مرهونة بالحدث في حينه كأفلام «الحرب العالمية» التي تعرف نوعين من المعالجة في العصر الحالي:

الأول: البحث عن الصورة التي لم تعالج بعد.

الثاني: تصحيح الصورة التي عولجت من قبل(١).

وما دام الفيلم الوثائقي يعتمد على الوثيقة كدليل مرجعي يحتم ضرورة الاعتماد عليها بغية ترتيب المعلومة وتهذيبها، فإنَّ القرآن الكريم ليس هو وثيقة يمكن الاستئناس بها، وحتى لا نقع فيما تمت الإشارة إليه من تجرؤ على كلام الله (، فإنَّ القرآن الكريم بالنسبة للفيلم الوثائقي هو عنوان «كبرى اليقينيات الكونية» التي يعود المبدع في صناعة الصورة إليها كموجه أساسي لا محيد عنه، فالأخبار الكونية والحقائق العلمية والظواهر الإنسانية وغيرها من مرتكزات الوجود، قد تختلف الروايات في نقلها، إلا أنها تكون ثابتة في آيات كتاب الله تعالى، ومن أمثلة ذلك:

على مستوى (الوثائقي العلمي):

ـ خلق الإنسان، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ

---

(١) عبدالله أبوعوض، الثورة والفيلم الوثائقي، الكتاب الرابع «ربيع الوثائقي» مجموعة من الباحثين، سنة (٢٠١٣م)، (ص: ٢٢٧).

ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ١٢ ـ ١٦).

ـ البحار، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٤).

ـ الأرض، قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥).

ـ السماء، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

ـ القصص القرآني، وما فيه من حقائق اجتماعية وأوصاف بيئية وعمرانية يمكن أن تكون المرشد الأساس لما كانت عليه الحضارات الإنسانية حينها.

وعلاقة الفيلم الوثائقي بالقرآن الكريم ليست رؤية مستجدة يمكن التجرؤ عليها في وقتنا الراهن، باعتبار أنَّ هذه المبادرة قد نالت حظها في تجربة المفكر التركي «هارون يحيى»[1] في سلسلته الوثائقية، حيث أشارت مجلة «New Scientist» في عددها الصادر في ٢٢ أبريل (٢٠٠٠م) مقالًا ذكرت فيه أنَّ عدنان أوقطار أصبح «بطلًا عالميًا» بفضل

(١) هارون يحي: واسمه التركي: عدنان أوقطار، ولد في أنقرة عام ١٩٥٦، يعتبر من رجال الفكر البارزين في تركيا، ويولي أهمية كبيرة للقيم الوطنية والأخلاقية، كما يرى أنَّ تبليغ هذه القيم المقدسة إلى الآخرين يعد رسالة إنسانية، وقد بدأ صراعه الفكري منذ عام ١٩٧٩ عندما كان طالبا في كلية الفنون الجميلة جامعة المعار سنان.

شرحه لبُطلان نظرية التطور وبيانه لحقيقة الخلق، وقد ركز الكاتب في مؤلفاته كذلك على موضوعَي الماسونية والصهيونية لما لهما من تأثير سلبي على التاريخ والسياسة العالميين، وإلى جانب ذلك ألف عدنان أوقطار كتبًا أخرى في مواضيع مختلفة مثل الإيمان والأخلاق القرآنية، وقد تجاوز عددها المائة كتاب[١] وكلها ترجمت إلى لغات عديدة في العالم، إلا أنَّ أعظم ترجمة لها في مجال الممارسة الدعوية لهارون يحيى هي الترجمة السينمائية عبر الأفلام الوثائقية، هذه الأفلام التي عرفت إقبالًا كبيرًا في نسب مشاهدتها أحالت مباشرة إلى البحث في علوم القرآن الكريم من قبل المهتمين في الدول الغربية من حيث صناعة الصورة.

إنَّ القرآن الكريم وعلاقته بالفيلم الوثائقي لابد لها من قواعد وضوابط ينبغي التقيُّد بها حتى لا يقع التفسير الصوري الخاطئ للآيات القرآنية في مجال الصناعة السينمائية الوثائقية، ومن هذه القواعد:

- الاستعانة بعلماء علوم القرآن في معرفة ما يتعلق بالآية المراد البحث عنها، وتحويلها إلى صورة وثائقية، وهو ربط منهجي في الصناعة الوثائقية ما دامت الوثيقة مرهونة بالتدقيق، فكيف بآيات الله تعالى المرهونة بالقداسة.

- التركيز على الرسالة الجمالية في صناعة الصورة، لبناء رؤية إقناعية متميزة.

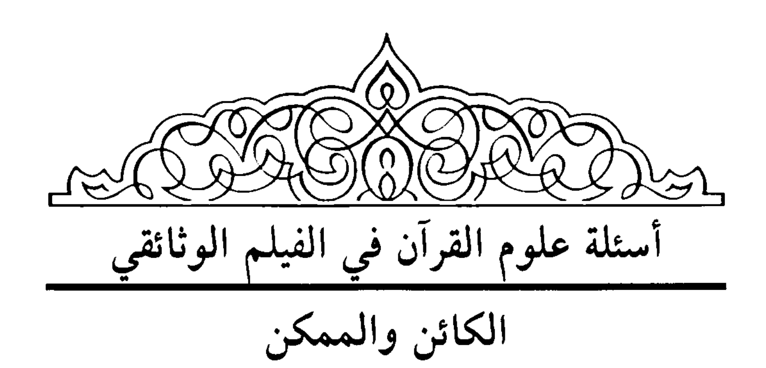
---

(١) http://www.al-malekh.com/vb/f96/12148/ تاريخ التصفح ٤/ ٢/ ٢٠١٤م.

ـ سبك عبارات بلاغية بلسان عربي مبني على منطق الاستدلال أكثر من الاستشهاد، لبيان المراد من آيات الله تعالى في مخاطبة العالمين.

ـ أن تعتمد الصناعة السينمائية الوثائقية لغة الصورة مع المؤثرات السمعية والبصرية المتوافقة مع حقائق الآية القرآنية.

إنَّ الفيلم الوثائقي هو رهان العصر في تبليغ الحقائق الكونية والهدف من الوجود، في ظل التعرجات الفكرية والتقلبات الإيديولوجية التي أصبح الإنسان فيها يحتاج إلى ما يوحِّد هدفه ومراده من الحياة، هذا إن كان هذا الفيلم قائم في صناعته على آيات كتاب الله تعالى.



أسئلة علوم القرآن في الفيلم الوثائقي

الكائن والممكن

● أ/ حسن مجتهد ●
كاتب وناقد سينمائي/ المغرب

على سبيل التقديم:

إلى عهد قريب كان مجرد التفكير في خلق نوعًا من الود والتوافق بين جنس اسمه السينما وأجناس علمية أخرى من قبيل الوهم، إذ كان عنصرا التنافر والتناحر هما سيدي الموقف، خصوصًا حينما يتعلق الأمر بأمور ذات أبعاد روحية أو دينية أو فوق ما يمكن أن يشكل حدودًا معرفية للبشر...، الأمر الذي جعل البعض يبحث عن مخرج لرأب هذا الصدع المربك لتلك العلاقة، من أجله سيعمل ثلة من الباحثين والمبدعين على صياغة علاقة خلاقة تجعل من مواقع الجمال فضاء لها ومحطة للتحاور في اتجاه خلق نوع من التآزر لخدمة كائن اسمه الإنسان، ولأن هذا الأخير ـ أي الإنسان ـ كتب عليه النسيان، كانت الحاجة ملحة إلى تذكيره بماضي ما قدمه أسلافه ليعيش ويعايش به حاضره وحاضر معاصريه، كما يستشرف به مستقبله ومستقبل خلفه

من بني جلدته، كانت الضرورة ملحة إذن لربط هذا الثلاثي عبر آلية فيلمية اسمها الفيلم التسجيلي/الوثائقي، وكما يبدو من الاسم فالفيلم التسجيلي /الوثائقي ما هو إلا تدوين بالكاميرا لما سجله وكتبه هذا الإنسان عبر عصور في دواوين وكتب وصحائف، هاته الآلة التي سيكون لها الشأن العظيم في التعريف بأهمية الفيلم التسجيلي/الوثائقي في تقديمه لخطاب علمي قرآني فاعل ومتفاعل مع كل المستجدات، مساهمًا في التعريف بهذه الثقافة القرآنية ككل. وبناء عليه فلا يختلف اثنان في كون القرن الذي نعيشه سيكون قرن التميز بالنسبة للفيلم التسجيلي/الوثائقي، ذلك أنه إذا كان القرن الذي ودَّعناه قرنًا لسبر أغوار الدراما السينمائية بامتياز ـ وإن كان قصدنا هنا يتجه نحو الدراما التاريخية ذات الدور التوثيقي التي ارتبطت بالأحداث التي لها علاقة بالصراعات السياسية والاجتماعية والدينية ـ ، فإنه أمام ما نكابده الآن من وحشية العولمة التي وضعت ضمن ترسانتها توحيد الثقافات وتوجيهها حسب نزواتها، وجعلها في يد قطب واحد متحكم، خصوصًا مع فتور، بل زوال الصراع الكلاسيكي الإيديولوجي بين الاشتراكية والرأسمالية، ومع اندثار الأولى وسيادة الثانية، وبالرغم مما قدمته الدراما السينمائية العالمية والتي كانت تحركها تلك الإيديولوجيات بشراهة طبعًا أمام تشجيع مادي ومعنوي مهول لكلا الطرفين، فإنَّ شبه الفراغ الحاصل على مستوى التناول الدرامي وعلى مستوى صراع الإيديولوجيات، جعلنا أمام إنتاجات عالمية وعلى إمكانياتها وترفها ... تتناول أنماطًا من سيناريوهات هي أقرب من التسجيلي/الوثائقي منه إلى الدراما السينمائية الروائية، وأصبحنا أمام إنتاجات عالمية تركز على

فناء العالم وعلى كائنات غريبة ستقطن الأرض في المستقبل، وأن مآل الإنسان سيكون بين كفي عفريت ... الأمر الذي جعل خصوصيات كل الأمم في مهب رياح عاتية لا تعترف بالتعدد، بل وأمام انتكاسة حقيقية اسمها طمس الهويات، هاته الأخيرة التي تعتبر في نهاية المطاف أحد مظاهر خصوصيات هذا الكون وقوته بل واستقرار آمنه، ولعل ما جاء في قول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)، لخير دليل على شرعية وصدقية التعدد والاختلاف، يبقى الاستثناء فقط في مدى التقوى في علاقتنا مع خالقنا، ومن الأمثلة التي يمكن أن نستشهد سينمائيًا والتي أصبح ينعتها رجال السينما ونقادها والمهتمون بها بالأفلام الأكثر غرابة مثلا: فيلم (أفتار)، وفيلم (٢٠١٢)، وفيلم (أبوكاليبس ناو).... إلخ.

قد يتساءل البعض لماذا هذا التقديم؟ أقول لعل تفكيرنا هذا آت..، من منطلق المصلحة التي يجب أن تكون متبادلة بين مجموعة من الأجناس ذات الأبعاد العلمية،... والتي حتمت علينا ـ نفعيًا ـ إعادة السؤال: هل بإمكاننا خلق ذاك التوافق والتآلف بين السينماتوغراف كأخر فن عرفته الحضارات الإنسانية وبين بعض العلوم التي تستقي مشروعيتها من العلوم الدينية والروحية، ولعل قصدنا هنا سيحدد أساسًا من خلال حديثنا عن علم تشمرت له سواعد وهمم من أجل أن يكون علمًا لا يحتمل إلا اليقين، دون الانزلاق نحو تلك التراكمات التي عرفتها السينمات العالمية من خلال الدراما الدينية..، وبالتالي ما الآليات التي تجعلنا نشر عن هذا التوافق؟ بمعنى أكثر توضيحًا ما

الجنس السينمائي الأقرب إلى اليقين والذي يقارب علمًا لا يحتمل إلا اليقين؟ هل يمكن للحقيقة التي ـ قد ـ يمثلها الفيلم التسجيلي/ الوثائقي معانقة الحق الذي ـ قد ـ تمثله مباحث علمية من قبيل كل العلوم المرتبطة بكتابنا المقدس: القرآن الكريم، وبالتالي ما الكائن وما الممكن في العلاقة التي يمكن للفيلم التسجيلي/ الوثائقي أن يقدمها لعلوم القرآن من منطلق توظيف وسائطي/ براغماتي، مثله في ذلك مثل جميع الوسائل التواصلية/ الوسائطية التي أصبحت تقدم خدمات جليلة لمجمل مناحي الحياة... وإن كنا نتحدث في هذا المقام على الخدمات الإيجابية بالأساس ذات المقصد النفعي للبشر والبشرية.

قبل الوثائقي كان التوثيق:

من دون أن نقوم بعرض تاريخي لظهور السينما، فلا شك سنكون متفقين على أنه قبل ظهور الصورة وقبل ظهور معالم الكتابة بالكاميرا أواخر القرن ١٩م، كان رجالات الفكر في المجتمعات الإسلامية والعربية قد تجندوا، ومنذ الرعيل الأول لتدوين ما بالصدور وكتابته في السطور، طبعًا نحن هنا لا نتحدث عن القرآن الكريم وحسب، لأنَّ طريقة جمعه وتدوينه كانت تسير وفق أمر وعناية إلهية لا ريب في ذلك، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، حديثنا هنا يسير في اتجاه المناحي الفكرية والمذاهب الفقهية والأصولية التي أسست لما أصبح يعرف فيما بعد عند المحدثين بعلوم الحديث، وعند الفقهاء والأصوليين بعلوم القرآن، وأعتقد أنَّ المباحث التي عالجتها مناهج علوم القرآن ـ بالنقاش والتحليل ـ مع ثلة من

المحدثين والباحثين، سواء القدامى منهم أو المحدثين وفي ظل هاته الموجة العارمة مع ظهور آليات أخرى للتدوين وانتشار تكنولوجيا إعلامية خارقة، اتسمت بالسرعة في التدقيق والتحقيق والتدوين، فصار من الضروري لدى هاته الفئة من العلماء الانفتاح والتفكير في طرق أخرى للتواصل أكثر، من أجل إذكاء روح الفضول لدى الشباب الذي أصبح أكثر انجذابًا لتلك التكنولوجيات المتجددة والمتنورة والأكثر فائدة خصوصًا الموظفة لأغراض ذات قيمة نبيلة، الأمر الذي جعل الكل يتفق على أنها ستكون فرصة ممتعة لتفعيل تلك الثقافة الوسائطية بهدف تقريب ثقافتنا القرآنية ككل لذاتنا العربية والإسلامية والكونية ككل.

من جهتنا نتساءل أين يكمن الإشكال إذن وأمام هذا الزخم والتراكم العلمي الذي تفضل به علماء الإسلام إذا ما تم توظيف التقنيات الجديدة في مجال الصورة وتسخيرها خدمة للروافد العلمية التي بحث فيها هؤلاء العلماء، وأسسوا لنا بذلك علمًا أصبح يصطلح على تسميته بعلوم القرآن، خصوصًا إذا أدركنا أن علمائنا لم يجرموا يومًا ما تسخير تكنولوجيا السمعي البصري في خدمة علوم القرآن وغيرها من العلوم الشرعية....، بل بالعكس أكدوا تزكية ذلك بدعوى أنَّ الأثر الذي تركته تلك التكنولوجيا في نشر العلوم القرآنية وتيسير تلقيها، أحسن بكثير من تلك الطريقة التي كان يتبعها الدعاة في تبليغ تلك العلوم، لسهولتها خصوصًا مع ثورة التعليم عن بعد والتي أصبحت من أرقى الطرق والمناهج في وقتنا الحالي....

ونعود لكي نؤكد على أنَّ تقنية التلقي عبر الفيلم التسجيلي/ الوثائقي

وبواسطة التقنيات المذكورة سالفًا تعتبر من أنبل الوسائل الواقعية والتي لاقت إقبالًا منقطع النظير عبر ربوع العالم الافتراضي وعبر القنوات الفضائية، فأصبحت بذلك المعارف في مجال العلوم الشرعية وعلى رأسها المباحث التي تتناولها علوم القرآن الأكثر انتشارًا والأكثر تلقيًا وسيولة من طرف المسلمين وحتى من طرف الباحثين والمستشرقين الذين قد تهمهم تلك العلوم فقط في بحوثهم العلمية، من أجل مقارعتها ومقارنتها مع مباحث علمية أخرى.

الوثائقي هوية السينما الفاضلة:

بالرغم من تسليمنا بأنَّ جل الملاحم السينمائية الدينية العالمية سواء العربية أو الغربية والتي تناولت قصص الأنبياء والرسل خلال القرن الذي ودعناه (القرن العشرين)، كانت تحكمها أدوات وآليات درامية / روائية، فهي في نهاية المطاف تعتبر أفلامًا وثائقية بامتياز خصوصًا إذا سلمنا بأنَّ القرآن الكريم جمع من القصص التي حكت لنا عما حدث قبل البعثة المحمدية ما لا يحصى ولا يعد، نستدل في هذا المقام قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦٢)، إنَّ جل الأفلام الدينية سواء التي أنتجها العرب أو الأجانب والتي كانت قد أنصفت بشكل أو بآخر كل القصص التي جاءت في القرآن وتم كتابة سيناريوهاتها بشكل موافق لما جاء في القرآن الكريم هي في الأساس تكريس لجانب من العلوم القرآنية على وجه الخصوص ولتاريخنا الإسلامي وتاريخ الفتوحات الإسلامية عبر ربوع الرقعة الإسلامية ككل.... كل ذلك ساهم بشكل كبير في اعتبار

تلك الأفلام أفلامًا وثائقية قبل أن تكون روائية، بالرغم مما تضمنته من مؤثرات تقنية فنية خاصة تقتضيها طبيعة العمل السينمائي، وإن كان المخرج الإيطالي فيديريكو فيليني يقول بأنَّ السينما تعتمد لغة الحلم بتلك التوظيفات الفنية[١]، فإننا نقول له أنه حينما يتعلق الأمر بحقائق قطعية فإنَّ لغة الحلم/ الخيال المطلوبة تبقى هي تلك التي تجعل من الإنسان الكائن الوحيد المساهم في تغيير هذا العالم من خلال اقتداءه بما سلف من أحداث قبل البعثة وجعله مرآة له، «...إنَّ القصص القرآني هو بمثابة مرآة ترى فيها الدعوة المحمدية نفسها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، عبر ـ التاريخ المقدس ـ، تاريخ الأنبياء والرسل...)[٢].

وعمومًا يبقى الفيلم الوثائقي أحد مكونات هوية السينما الفاضلة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها فكل فيلم كيفما كانت جنسيته أو جنسه فهو في نهاية المطاف إضافة للأرشيف الإنساني، «إنَّ الفيلم الوثائقي هو.... ترجمة فعلية وإبداعية للواقع الخَلَّاق»[٣]، إنَّ تسليمنا بذلك يعني تسليمنا بأنَّ كل الأفلام الوثائقية التي تجعل من القرآن الكريم أحد اهتماماتها لن تخرج عن هذا السياق الفاضل، وما دام «الفيلم الوثائقي هو لغة العصر السينمائية، ولغة الوثيقة الأكاديمية ـ لأنه ـ النقل...

---

(١) عصر الصورة: السلبيات والإيجابيات، د. شاكر عبدالحميد (ص: ٢٥٩)، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت، يناير (٢٠٠٥م) العدد: ٣١١.

(٢) فهم القرآن، د. محمد عابد الجابري، (ص: ٢٣٧)، الجزء الأول، في التعريف بالقرآن، ط١، سبتمر (٢٠٠٦م)، المغرب.

(٣) مقدمة في صناعة الفيلم الوثائقي، د. عبدالله أبوعوض، (ص: ١١)، ط١، (٢٠١٣م)، المملكة المغربية.

الخَلَّاق للواقع.... للتفاعل معه»[١]، فإنَّ كل الأفلام الوثائقية حول علوم القرآن ستصبح مرجعًا لكل من يريد تطوير تلك العلوم، وجعلها سهلة التناول على مستوى البحوث العلمية بين كل الباحثين والمهتمين.

أسئلة علوم القرآن في الفيلم التسجيلي/ الوثائقي: الكائن (واقع الحال):

من دون أن نلج عالم الأبجديات المعروفة في صناعة الفيلم الوثائقي، يبدو أنَّ المشهد الإعلامي والسينمائي في شقه التسجيلي/ الوثائقي على وجه الخصوص في الوطن العربي يعرف في الظرف الراهن، حالة من الغليان والهيجان على مستوى التدفق الإنتاجي من أجل الظفر بسبق على مستوى بث برامج تعرف بعلوم القرآن من حيث ضرورة الاطلاع عليها من طرف كل من تربطه بالإسلام صلة سواء من بعيد أو من قريب، لكن القريب منها يبقى هو المعني الأول من طرف تلك الإنتاجات لأنه هو المساءل الأول والأخير عن إدراك محيطه الروحي والديني والمجتمعي إذ أننا أصبحنا «نعيش الآن عصر التفسير السوسيولوجي لمنجزات الثقافة..» على حد تعبير أرنولد هاوزر في كتابه فلسفة تاريخ الفن[٢] ....، وعليه ومن وجهة نظري الشخصية فإنَّ واقع الحال يشير بما يدع مجالًا للشك أنَّ هذا الهيجان خلق نوعًا من التصدعات الفكرية والفوضى الشبه المنظمة على مستوى

(١) مقدمة في صناعة الفيلم الوثائقي، د. عبدالله أبوعوض، (ص:١٣)، ط١، (٢٠١٣م)، المملكة المغربية.

(٢) سوسيولوجيا الفن: لديفيد إنغليز وجون هضون، (ص:١٦٣) سلسلة عالم المعرفة ـ دولة الكويت ـ يوليو (٢٠٠٧م)، العدد ٣٤١.

الإحاطة العلمية، فاختلط الحابل بالنابل... فأصبحنا أمام أعمال فنية تختلف مناهج تحليلها، بل يمكن الجزم أنَّ معالم مناهجها قد لا يكون لها تفسير أو أساس علمي، أعمال تجمع بين الصدق أحيانًا والتلفيق أحيانًا أخرى بدعوى حرية التفسير والبيان، بل إنَّ الأمر تجاوز ذلك في كثير من الآحايين ضاربًا بعرض الحائط القواعد السائدة في صناعة فيلم وثائقي بآليات معيارية متعارف عليها، تتناول موضوعة من موضوعات مباحث علوم القرآن، فتضيع بذلك مشاهد هذا الفيلم أو ذاك داخل تحليلات وتعليقات متسرعة وفضفاضة، هشة وخالية من كل صواب علمي.

نفس الهيجان خلق فوضى على مستوى الإنتاج والتي كان لها بالغ الأثر على مستوى التلقي، إذ أصبح ما يعرض من أفلام وثائقية لها علاقة بعلوم القرآن الكريم، يجد المشاهد صعوبة في فهمها بل يصعب عليه في الكثير من الأحيان تصنيفها: هل هي فيلم وثائقي أم روبورتاج صحفي؟ هل هي فيلم ديداكتيكي تعليمي أم فيلم تربوي يهم الجميع وليس شريحة طلبة العلم؟ وبطبيعة الحال وهذا إشكال في غاية الأهمية فإنَّ «تلقي العربي لفيلمه الوثائقي ولغيره، يفرض ضرورة تطوير المعايير الفرجوية لدى المتلقي العربي، الذي تتحكم فيها مجموعة من الأنماط (الفيلم الوثائقي الحيواني كمثال) التي صنعتها بشكل قصدي وغير قصدي، سياسات سمعية بصرية محددة»[(١)]... «مما جعل العربي في فرجته العامة، مشدودًا دومًا إلى ما هو اجتماعي، أو عاطفي، أو حربي

(١) الفيلم الوثائقي العربي: محاولة في التأسيس: تأليف مجموعة من الباحثين، الكتاب الثالث (٢٠١٢م)، من إصدارات قناة الجزيرة الوثائقية، (مساهمة الدكتور الحبيب ناصري تحت عنوان: تلقي الفيلم الوثائقي في العالم العربي، ص: ٢٣١) ـ قطر.

عسكري... إلخ، في غياب ملحوظ لتدني الفرجة كلما تعلق الأمر بمواد فنية وثقافية تتطلب نوعا من المرجعيات النقدية والتحليلية والذوقية الجمالية والإنسانية»[١]، إشكال طبعًا يحتم علينا طرح سؤال مفاده: هل نحن بالفعل أمام أعمال احترافية تعتمد أسلوب البحث العلمي الدقيق، أم هي أعمال لا يهمها سوى الربح التجاري على حساب علوم تنتمي للدين، إذ الملاحظ على جل الفضائيات الخاصة أو حتى المؤسساتية والتي تدعي تفردها ببرامج خاصة بعلوم القرآن الكريم أنَّ جل وقفاتها الإشهارية عبارة عن وقفات لبيع الأعشاب والأدوية البديلة ولكل الأمراض تحت يافطة: «فاصل وسنعود»، الأمر الذي ينغص علينا متعة الفرجة البصرية..

إنَّ الأمر يقتضي جانبًا من الجدية والتضحية على مستوى البحث والتدقيق والتمحيص خصوصًا وأنَّ الغاية المثلى من ذلك هو إضافة معلومات مصيرية إلى ذاكرة الإنسان/ المسلم الراغب في تنمية مؤهلاته العلمية في مجال علوم القرآن الكريم: وحيث إنَّ رغبته جامحة في ذلك، فإنَّ ذلك ممكن طبعًا من خلال ضرورة التعبير عن إرادته في التعرف أكثر على جلّ المباحث المتعارف عليها في علوم القرآن التي نريد للفيلم الوثائقي تبسيطها وتبليغها وبأرقى ما يمكن من السهولة: من ثم سيكون على مخرج الأفلام الوثائقية المتناولة لموضوعة من مواضيع علوم القرآن الكريم أن يكون ملمًّا مثلًا: بكل ما يتعلق بالقرآن الكريم كالفرق بينه وبين الحديث القدسي والحديث النبوي، ضرورة التعمق في

(١) نفس المرجع السابق.

كل ما يتعلق بالوحي، وأسباب النزول ومكي القرآن ومدنيه وما يميز كلاهما عن الآخر، يقتضي الأمر أيضًا التعمق في العلوم المرتبطة بنزول القرآن وجمعه وترتيبه، وعلم القراءات الذي يعتبر علمًا قائم الذات بقرائه وفطاحلته، تم الإحاطة بعلوم ذات صلة وثيقة بعلم الأصول الفقهية كالفرق بين المحكم والمتشابه، والعام والخاص، والناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والمنطوق والمفهوم، ويبقى الإعجاز القرآني من أخصب العلوم التي تسيل لعاب المخرجين، إذ يلتقي في هذا الأمر ثلة من العلوم التي تكون في هذا المقام منظومة متكاملة في تدبر حكمة وخلق الله من خلال القرآن الكريم[1] ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

بالإضافة إلى ذلك يبقى البحث الذي تقدم به مشكورًا الدكتور الفاضل عبدالعزيز بن عبدالرحمن الضامر للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية سنة (٢٠١٣م)، حول القرآن الكريم وعلومه في الأفلام الوثائقية لخير أرضية مطروحة للنقاش ولبذل الجهد من أجل تطويع تلك العلوم وجعلها سهلة المنال من خلال إعادة كتابتها بواسطة كاميرا ناقدة ونافذة وفاعلة حتى تكون سهلة التلقي، لقد وضع الدكتور الضامر أمام أنظار ثلة من الباحثين والمخرجين والمهتمين الخطوات الأولى للدخول إلى عالم مليء بالمفاجآت والإعجاز العلمي الرصين،

(١) للتعمق أكثر يمكن تصفح الكتب التالية: مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح، ومباحث في علوم القرآن لمناع القطان.

إنه بحث يستحق كل تقدير لبساطة تلقيه من كل الشرائح المتعطشة للغة تغيير واقع الحال والدفع به إلى بر الممكن[١].

أسئلة علوم القرآن في الفيلم التسجيلي/ الوثائقي: الممكن (ما يمكن أن يفكر فيه):

من هنا يظهر جليًا للمتفحص العربي المتتبع للعلوم القرآنية بمعناها الواسع وفي ظل الظروف الراهنة التي أصبحت الصورة فيها الناطق الرسمي بلسان كل الأمم، وهي «المهيمنة والواقع في خلفيتها، لم تعد هناك صورة وأصل، بل صور ذات أصول متعددة...»[٢]، في ظل هذا الوضع فإنَّ إعادة كتابة مبحث من مباحث علوم القرآن الكريم بواسطة الكاميرا تقتضي التعمق والتمكن من كل الآليات التي تتم بها عملية

---

(١) محاور البحث الذي تقدم به الدكتور: عبدالعزيز بن عبدالرحمن الضامر:
أولًا: تعريفات عامة لعنوان البحث،
ثانيًا: أهمية توثيق مسائل علوم القرآن من خلال الأفلام الوثائقية،
ثالثًا: خطوات توثيق مسائل علوم القرآن من خلال الأفلام الوثائقية،
رابعًا: مكونات الفيلم الوثائقي،
خامسًا: بعض التوصيات والأفكار المتعلقة بتوظيف مسائل القرآن الكريم وعلومه من خلال الأفلام الوثائقية،
سادسًا: بعض العناوين المناسبة لأن تكون مشاريع مناسبة لأفلام أو سلاسل وثائقية خاصة بالقرآن الكريم وعلومه،
سابعًا: ملحق لأشهر السلاسل والأفلام الوثائقية المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه عبر بعض القنوات الفضائية.

(٢) عصر الصورة: السلبيات والإيجابيات، د. شاكر عبدالحميد (ص:٣٩٣)، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت، يناير (٢٠٠٥م) العدد: ٣١١.

الحكي الوثائقي المعتمد على لغة الحقيقة وليس لغة الحلم كما قال فيليني، هنا نقطة الخلاف، أما اعتماد الحس الجمالي فهذا طبعًا هو المشترك بين كل السينمات وبكل أجناسها الحكائية، فنحن لسنا أمام مادة أدبية وحسب، بل إننا أمام منتاج يحمل بين طياته متونًا تختلف عن المتون السائدة في المجلات والروايات... إنها متون اجتهد فيها جهابذة وثقات نالوا بفضلها إجازات من علماء عرفوا بالورع والإخلاص لله، ويقينًا فإنَّ الراغب في ولوج عالم الإخراج في هذا المجال عليه أن يقدر المحن والنضالات التي خاضها هؤلاء العلماء، كي يحاول من جهته المساهمة في تبليغ ما جاهدوا من أجله، إنَّ الإمكانية المتاحة حاليًّا لتحويل مكوّن من مكونات علوم القرآن إلى موضوع فيلمي وثائقي، تستدعي التحري بالمروءة العلمية لاتخاذ القرار الذي يخدم في المقام الأول كتاب الله: القرآن الكريم باعتباره الحجر الأساس لكل مشروع مجتمعي، وأن يعتبر عمله هذا نوعًا من الجهاد وليس عملًا بذخيًّا أو ترفيهيًّا بل بالعكس من ذلك، على مخرج الأفلام التسجيلية/ الوثائقية الخادمة للقرآن الكريم أن يتحرى الجدية والصدق والحصيلة في النهاية: أننا حينما ننتج فيلمًا وثائقيًّا يلامس قضايا علوم القرآن وبلغة فيلمية وثائقية متعددة ومبنية على البساطة والتقريب الجميل، سنساهم بلا أدنى شك في إزالة مجموعة من الشوائب والتمثلات الخاطئة عن ثقافتنا الإسلامية ككل وعن الإنسان المسلم بصفة خاصة وما علق به من تهم جعلته يوصف بأعنف الأوصاف، على مخرج الأفلام الوثائقية التي لها علاقة بعلوم القرآن أن يطيل من أمد تأثيرها

في نفسية المشاهد إلى الحد الذي تؤثر في أفكاره وتساعده على تشكيل مواقفه وعواطفه وسلوكه(١)، بالشكل الذي يجد نفسه محاطًا اجتماعيًّا بتطبيقها في حياته وبين أفراد أسرته ومن حيث لا يدري، إذاك سنكون قد بلغنا المراد، إنَّ ما نريده من مخرج الأفلام الوثائقية المتعلقة بالقرآن الكريم هو أن «تهم ـ أعماله ـ عصرنا بأي أسلوب كان حيث يتجاوب مع خيال الناس ويجعلهم أكثر إحساسًا وتفاعلًا مع ما يدور حولهم...»(٢).

نحو تجديد المصالحة بين رواد الدراسات القرآنية والمخرجين السينمائيين:

ماذا بقي إذن بعد تبديد بعض الغيوم حول الأسئلة الكثيرة التي تطرحها مباحث علوم القرآن ومخرجي الأفلام التسجيلية/ الوثائقية(٣) الذين يشتغلون على متن خاص لا يشبه المتون المعروفة، إنها بادرة

(١) وسائل الإعلام والمجتمع ـ وجهة نظر نقدية، تأليف آرتر أسا بيرغر، (ص: ٩٥)، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت، مارس (٢٠١٢م)، العدد: ٣٨٦.

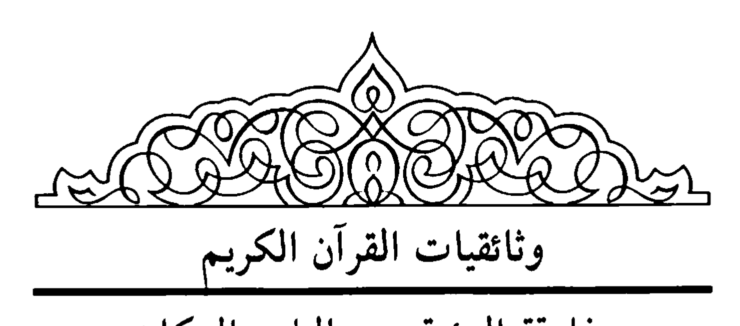
(٢) الفيلم الوثائقي العربي: محاولة في التأسيس: تأليف مجموعة من الباحثين، الكتاب الثالث (٢٠١٢م)، من إصدارات قناة الجزيرة الوثائقية (مساهمة أمير العمري، تحت عنوان: نقد الفيلم التسجيلي: أسس المعرفة والتناول، (ص:٢٠٥)، والنص لرائد السينما التسجيلية جريرسون) ـ قطر.

(٣) للإشارة فقط: فإنَّ تسمية الفيلم التسجيلي هي السائدة في المشرق العربي، فيما تسمية الفيلم الوثائقي هي السائدة في الدول المغاربية؛ ولعل اعتماد تسمية «الوثائقي» تعود إلى التسمية الفرنسية «DOCUMENTAIRE»، ولذلك مايبرره، لا يسع المجال هنا للتوسع في الموضوع.

كان وسيكون لها بالغ الأثر في استغلال الفيلم الوثائقي للتعريف بمكونات علوم القرآن وتوظيفه وبلغات متعددة عالمية، لإفهام الآخر لتلك العلوم بلغة جمالية تتجلى فيها تلك القدسية التي حبا الله بها القرآن الكريم وأحاطه بعناية خاصة، أرغمت بعض الخصوم يقرون بكينونة ما جاء به وما جاء به نبي الإنسانية محمد ﷺ، إنَّ البحث الذي تقدم به الدكتور عبدالعزيز بن عبدالرحمن الضامر للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية سنة (٢٠١٣م)، حول القرآن الكريم وعلومه في الأفلام الوثائقية، ليعتبر في نظري أحد مكامن القوة التي يمكن أن نعقد بها مصالحة شاملة بين المتخصصين في علوم القرآن كي يطوروا بحوثهم في اتجاه تسهيل المأمورية على المخرجين لتحويلها إلى أفلام وثائقية رائدة، إنها مقدمات ـ تفضل بها مشكورًا الدكتور الضامر ـ تستحق كل الانتباه، إنها وثيقة لتجديد الصلح بين كل الشرائح الخادمة لكتاب الله، الراغبة في نهج مسلك الجهاد السينمائي البناء الوازن بين المتخصصين في الدراسات القرآنية والمفكرين والنقاد والمخرجين من كل الأقطار في العالم لصالح كرسي القرآن الكريم وعلومه، والغاية كل الغاية تتجلى في خلق نوع من التقارب والتفاعل الإيجابي بين كل الفاعلين من أجل الظفر بمشاهد مستمتع ناقد، وبصورة جميلة عن إسلام متشبع بروح الحوار والتعاون، ضاربين عرض الحائط كل التمثلات عن الإسلام وتاريخه، والصور النمطية عن القرآن وقدسيته.



قراءات



وثائقيات القرآن الكريم

مفارقة الرؤية وجماليات المكان

● د. سمير الضامر ●
كاتب وباحث/ السعودية

إذا ابتعدنا عن الأفلام الوثائقية العربية، وتحولنا للأفلام الوثائقية العالمية للقرآن الكريم، فسنجد أنفسنا أمام اتجاهات ثقافية، وأطروحات فكرية، وجماليات فنية متعددة، يحتويها عدد هائل من الأسئلة الفكرية والحضارية التي تناقش مفهوم (المقدس) من خلال (القرآن الكريم)، وتناقش المكون الفكري للشعوب الإسلامية وعلاقتهم بغيرهم من الشعوب العالمية.

ومن هنا تكمن إشكالية الموضوع، فتناول القرآن الكريم وثائقيًّا عند العرب المسلمين يختلف اختلافًا كبيرًا عند غيرهم من غير المسلمين، وخاصة في مجال الرؤية، إذ إنَّ أغلب وثائقيات القرآن الكريم العربية تحاول تقديم القرآن الكريم كما هو في نظر الشريعة الإسلامية، أي كتاب هداية وإرشاد وتشريع، أما الرؤية الأخرى فتحاول أن تتناول وثائقيات القرآن الكريم من منطلقات فكرية واقعية، وتحاول الربط بين

واقع المسلمين في العبادات والمعاملات مع مجمل التغيرات الثقافية العالمية.

إنَّ اختلافات الرؤية حول القرآن الكريم وثائقيًا في المُنتج العالمي أكثر جرأة في طرح السؤال الفكري، وأقل تناولًا في مسألة البعد البصري فنيًّا، بينما رؤية المسلمين في وثائقيات القرآن أقل تناولًا للأسئلة وأكثر اعتناءً بالتقنية البصرية ودهشة الصورة، وهذا يحمل في مجمله نوعيتين من الرؤية هما: الرؤية الشكلية، والرؤية الموضوعية.

وفي هذا السياق يطرأ سؤال:

ألا يمكن للمسلمين أن يطرحوا نفس الأسئلة والمشكلات التي طرحها المنتجون الغربيون؟

ما هي تبعات الصراحة الفكرية في تناول المنتجين المسلمين لمضامين القرآن وثائقيًّا؟

هل من محاذير واضحة في تغييب الجانب الفكري والصراع العالمي المعاصر من رؤية المنتجين المسلمين لوثائقيات القرآن الكريم؟

هل القرآن الكريم نفسه يمنع أن يمسه أحد بتساؤل حول ما يمكن ـ جدلًا ـ أن يظهر أن فيه تناقضًا بينما هو من صميم موضوع السؤال الإيماني؟

الوثائقيات:

يبدو أن الثقافة العربية تجد تحرجًا في مناقشة موضوعات القرآن الكريم التي تخص الواقع، وخاصة تلك المواضيع التي كثر الاجتهاد

حولها، كقضايا المرأة والحجاب والعنف والجهاد والاتجاهات والأحزاب الدينية، وأقصد من مناقشتها أي تلمس مدى فاعليتها وحيويتها بوصفها تستمد القرآن الكريم مصدرًا لانطلاقتها في الواقع المعاصر، والنظر لها من خلال رؤية محايدة واضحة، والوصول لنتيجة: هل بالفعل مسارات الواقع العربي هي ما نص عليه القرآن الكريم صراحةً، أم هي نتاج اجتهادات وتأويلات مختلفة؟

وفي ظني أن مفهوم السلطة الفكرية ـ التي تتمتع بها بعض المؤسسات الدينية والإعلامية ومراجع الفتوى ـ لا تخول لخطاب الثقافة العربية ومنه الأفلام الوثائقية تناول هذا الموضوع بكامل الصراحة والشفافية، ولذلك فإن منتج الأفلام الوثائقية القرآنية يتلمس مواضيع القرآن الكريم العامة كالعبادات والأسرار اللغوية وقضايا الإعجاز العلمي وغيرها، وهذا على النقيض من منتج الأفلام الوثائقية العالمية حول القرآن الكريم.

the qoran

في بداية هذا الفيلم يتم استعراض مشاهد دموية لضحايا التفجيرات التي تحدث في المساجد والمزارات، ومشاهد لعدد من المساجد المهدمة، في محاولة بصرية لاستنطاق الصورة واستجلاء الصراع الذي أدى لهذه الجرائم اللاإنسانية: فهل هذا من عمل السنة ضد الشيعة؟ أم عمل الشيعة ضد السنة؟ ثم يخرج عنون الفيلم: the qoran، ثم تتجول الكاميرا على عدد من الأماكن الريفية والشعبية والحضرية لمسلمي مصر والسعودية وإيران والتقاط تصريحات لبعضهم عن دور القرآن الكريم في

حياتهم وعلاقاتهم بالمختلفين معهم، الاستعراض المشهدي لجماليات الأرياف والأماكن الشعبية ينسيك مشاهد العنف والقتل التي في بداية الفيلم، وتأخذك حميمية دافئة مع تلك الأماكن وكأنك تقرأ رواية من روايات نجيب محفوظ، إلا أن هذا الفيلم يختلف في مضمونه عن روايات نجيب محفوظ من خلال استعراض:

الصلاة في الريف، وقراءة القرآن في الريف، علاقات الناس في الريف من خلال المكون الديني وهو القرآن الكريم، ثم يتجه إلى خلق مفارقات فكرية من خلال الصورة البصرية التي تعرض لثنائيتين دينيتين في العالم الاسلامي هما: الشيعة والسنة، وتعرض أهم ملامح اللباس والصلاة وأماكن العبادة لكلا الفئتين مع إبراز المكون الأساسي لكلتيهما وهو القرآن الكريم، يعتمد هذا الفيلم على تقنية عرض الرؤية والثنائية من خلال المكان الديني وجماليات المعمار الإسلامي المتمثل في عمارة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة بوصفهما مكانًا للإسلام السني، وعمارة المساجد في طهران ومشهد والأضرحة بوصفها مكانًا للإسلام الشيعي.

جماليات المكان الديني واضحة في التنقلات البصرية لكل الأماكن والمساجد الدينية، وهي في ظاهرها ترمز للأمان والإيمان الذي يسعى له المسلمون السنة والشيعة على حد سواء، فمشاهد الفيلم خالية من العنف والصراع الطائفي ـ عدا لقطات البداية ـ التي هي الأساس في تناول إشكالية الفرق بين السنة والشيعة، وهي في الوقت ذاته تلح على إبراز تكون هاتين الفئتين تاريخيًّا وواقعيًّا في المشهد الإسلامي

ودورهما في المشهد العالمي بوصف كل منهما متكلم عن نوع من الإسلام.

ومن هنا يشع السؤال: كيف يكون القرآن الكريم بوصفه كتابًا واحدًا ويتشتت المسلمون فرقًا وأطيافًا مختلفة! وليسوا كيانًا واحدًا.

هل القرآن الكريم هو سبب الاختلاف بين المسلمين؟ أم أنَّ المسلمين هم سبب الاختلاف؟ ومن هنا تنطلق الرؤية الوثائقية نحو القرآن الكريم من خلال هذه المسألة الفكرية والدينية في طريقة تلقي المسلمين للقرآن الكريم، وطريقة تلقي الغربيين للقرآن الكريم. مع عدم إنكار الدور السياسي في ذلك وإن كان مضمرًا وليس ظاهرًا.

The Quran and the kalashnkov

bbc documentary 1998

القرآن والكلاشنكوف

هذا عنوان لأحد الأفلام الوثائقية، هو عنوان صادم ومخيف خاصة لمن يتلقاه من المسلمين، حيث إن العنوان يعمل على مفارقة ثنائية تجمع بين القرآن بوصفه رمزًا مقدسًا للمسلمين، وبين الكلاشنكوف وهو آلة الحرب التي استخدمها الأفغانيون في حربهم مع السوفييت، وهذا العنوان يوحي لك بالعديد من المفارقات الدينية والتاريخية والسياسية، وبالفعل فهذا ما تحمله رؤية الفيلم إذ إنها تتتبع تاريخ صعود الإرهاب باسم الإسلام، وتحديدًا يستعرض ظروف الحرب الأفغانية السوفيتية التي غلفت بمسمى الجهاد الإسلامي في أفغانستان، بينما الرؤية المضمرة التي كشفها الفيلم أن الصراع الأفغاني السوفيتي

هو صراع أمريكي سوفيتي، وبين دور الولايات المتحدة الأمريكية في دعم الحركات المسلحة في أفغانستان باسم الجهاد الإسلامي وذلك من أجل إسقاط الاتحاد السوفيتي، كما بيّن الفيلم دور الدول العربية في دعم ذلك الصراع الذي انتهى به الأمر إلى سقوط الاتحاد السوفيتي وظهور طالبان وأسامة بن لادن، وكيف أن وكالة الاستخبارات الأمريكية دعمت الأخير في تلك الحرب، وفي الجانب الآخر في نفس الجهة المكانية كيف تم إسقاط شاه إيران، ثم مجيئ الخميني للسلطة في إيران نازلًا من طائرة فرنسية. بطبيعة الأمر فإن كل ما ذكره الفيلم هو وقائع سياسية، ولكن: ما دور القرآن في هذه السياسة العالمية؟ إنه يحاول الكشف بجلاء على استخدام السياسة لذهنيات الشعوب العربية الإسلامية في تمرير هذا النوع من الصراع باسم الجهاد المقدس الذي ورد في القرآن الكريم، واستعرض الفيلم مفهوم الجهاد المقدس تاريخيًا من خلال حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومفهومه في الجهاد الأفغاني، كما أن الفيلم يظهر بوضوح غباء الشعوب الإسلامية على حد تعبير كاتبة كندية تعلق على الفيلم - إذ كيف يمكن لشخص أو منظمة كأسامة بن لادن وطالبان يتلقون دعهمهم اللوجستي من أمريكا ثم يقومون بقيادة جهاد مقدس؟ وكيف يمكن للخميني أن يدعو للجهاد المقدس وهو الذي جاء على طائرة فرنسية في مشهد صارخ للرائي بكل مايحمله المشهد ودلالة الصورة في كون تعلق الطالبان والخميني بكل أنواع البراغماتية والوصولية من أجل الوصول للسلطة الدينية حتى لو كانت بدعم غير ديني! وكيف انطلى على تلك الشعوب الإسلامية أن تتعامى عن كونهم قاموا بحرب وكالة باسم الجهاد وباسم القرآن

الكريم، بينما الحقيقة هي وضع حد للحرب الباردة بين السوفييت وأمريكا.

qoran by heart

القرآن الكريم عن ظهر قلب

أما في الفيلم الوثائقي qoran by heart فتبرز جماليات المكان فيه بصورة ملفتة جدًّا، مما يدعو المشاهد للتساؤل: ماذا يعني المكان في فيلم يوثق للقرآن الكريم؟ ولماذا اختار السيناريست المكان الريفي لعرض أحداث توثيقية للقرآن الكريم؟

إنَّ المكان بوصفه مكونًا وحاضنًا لأحداث توثيقية للقرآن الكريم ينطلق من رؤية بصرية ذات أبعاد جمالية، وليست ذات رؤية فكرية عميقة كما في الأفلام السابقة الذكر، وهذه الأبعاد الجمالية هي مكون شعري أصيل في الثقافة العربية، ولذلك فإن كاميرا فيلم qoran by heart التقطت الأمكنة، ووظفتها توظيفًا جماليًّا في عرض عدد من عادات الشعوب الإسلامية في طريقتهم في حفظ القرآن الكريم، وكل المشاهد والأمكنة التي انطلقت منها هذه الثقافات الإسلامية هي أمكنة شعبية ذات مستويات فقيرة وربما أقل من ذلك، ولهذا فإن الفيلم يستعرض مفهوم الفقر في العالم الإسلامي ولكن بصورة مضمرة غير مباشرة، إلا أن الرؤية تكاد تقول: إن الفقر ومستوى المعيشة البسيط في عدد من أرجاء العالم الإسلامي لم يكن عائقًا أمام المسلمين وأطفال المسلمين من أجل أن يتعلموا ويحفظوا القرآن الكريم.

ومع تتالي عدد من المشاهد المتنقلة في أرجاء العالم الإسلامي

كالهند، وجزر المالديف، وطاجيكستان، ومصر عرفنا أنَّ كل هؤلاء الذين انتقلت الكاميرا لبيوتهم وأريافهم ومنازلهم البسيطة ماهم إلا مشاركون في مسابقة دولية لحفظ القرآن الكريم، وتبين أنَّ الأصل في هذا الفيلم هو توثيق دور الجائزة المصرية الدولية في حفظ القرآن الكريم، إلا أنَّ تقنية السرد قلبت البنية الكلاسيكية التي قد تنطلق منها المشاهد من أرجاء المسابقة الدولية في مصر ثم تنطلق إلى أرجاء العالم الإسلامي، إلا أن تقنية السرد البصري كانت أكثر ذكاءً وتشويقًا لجذب المتلقي من خلال نوعين هما: الجانب الروحي للقرآن الكريم وذلك من خلال تلاوات الأصوات الجميلة للقرآن، والجانب الجمالي في عرض الأمكنة. ثم العودة للمكان الأساس من التوثيق وهو مكان الجائزة الدولية بوصفه مكانًا رسميًا، ولو انطلق الفيلم في بدايته من مكان الجائزة لملَّ المشاهد ولما تفاعل كثيرًا مع الجوانب الرسمية والبرتوكولات المعهودة في المسابقات. إلا أن الفيلم يتمتع بقدر هائل من الرؤية البصرية في توظيف المكان وذلك كله من أجل انجاح الرؤية الأساسية للجائزة.

ولنستعرض بعضًا من لقطات جماليات المكان في الفيلم ومنها:

* لقطة عامة لمزارع خضراء تقبع خلفها جبال عالية.

* لقطة لحيوان أليف (قط) يتجول بين الأعشاب في مزرعة.

* لقطة لمنزل ريفي ولأصحابه الذين يمارسون حفظ القرآن الكريم

* لقطة لمكان فوقه هلال في دلالة على كونه مسجد للصلاة وتحفيظ القرآن.

* لقطة قريبة لمياه جزر المالديف ترتفع نحو الأفق لتظهر قاربًا وصيادًا يسحب شباكه وتقف اللقطة عند أفق السماء والشمس الغاربة.

* لقطة لفناء منزل قريب من البحر وامرأة تنحني لتنظيف أرضية المنزل وابنتها الصغيرة تلعب بالجوار.

* لقطة لطريق ترابي لحي من أحياء جزر المالديف.

* لقطة لبعض العشش التي تشتهر بها المالديف.

* لقطة لعُقاب يطير على ساحل بحري في السنغال غرب أفريقيا، وترتفع معه اللقطة لتظهر البيوت الممتدة.

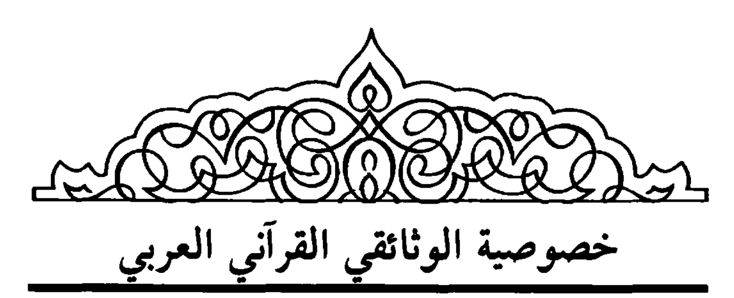
* لقطة قريبة لعدد من الأحذية تنفتح معها اللقطة لتظهر جانبًا من مصلين يصلون في مسجد بني بناءً تقليديًا.

* لقطة لطفل صغير يسير على الشاطئ مع والده وهو يتلو ماحفظه من القرآن ووالده يصوب له.

* أما اللقطات المكانية التي التقطت لمصر فهي تستعرض أمكنة شعبية ريفية في المزارع والسطوح والأسواق والمساجد وكأننا نتابع فيلمًا لنجيب محفوظ.

وكل تلك اللقطات والمشاهد يكون الصوت القرآني هو الخلفية التي تتوازى مع الأمكنة، مما يدعوك للتأمل دلاليًا في كون المكان الشعبي محفزًا وباعثًا لكثير من الرضا والإيمان والحفظ للقرآن الكريم، ويدعوك أيضًا للتساؤل: لماذا انحصر التوثيق القرآني في الأماكن الشعبية البسيطة الفقيرة، ولم ينفتح على القرآن في القصور والبلاطات

والمدن المتقدمة ومجالس الخلفاء والسلاطين؟ وهذا ما سبق أن أشرت إليه من كون الفيلم يعرض مفارقة ورؤية مضمرة للفقر في العالم الإسلامي، ولكن يظهر القرآن الكريم بوصفه كنزًا وقيمة أكبر لدى هؤلاء الفقراء مما لدى الأغنياء من قصور وأموال. ربما هذه تكون حقيقة عامة لدى الفكر الشعبي الذي يتعزى بالمقدس ويستأنس به في التغلب على ظروف الحياة، وهذه رؤية عامة في الحكايات والأفلام الشعبية، ولكننا ربما لانقبل من فيلم qoran by heart أن يعرض هذه الرؤية دون محاولة لسبر أغوارها وأبعادها الثقافية والاجتماعية، لا سيما أن القرآن الكريم هو مشروع عملي في صناعة الإنسان والحياة والكسب المشروع، وليس مقتصرًا على التلاوة والحفظ! ومن هنا تبرز المفارقة الحضارية الكبرى بين الرؤية الغربية لوثائقيات القرآن الكريم التي تناولت الإنسان والإسلام والحداثة والاتجاهات والمرأة والعنف والسياسة في ضوء القرآن الكريم، وبين الرؤية العربية في وثائقيات القرآن الكريم التي ظلت أسيرة الرؤية الجمالية بأبعادها الشعرية والوصفية، ومع أن هذا الوصف والسرد البصري قد كشف غيابًا واحتياجات للإنسان المسلم في القرن المعاصر، إلا أن الفيلم جعل من الجماليات قناعًا لفساد كبير يعم العالم الإسلامي تلميحًا دون تصريح.



خصوصية الوثائقي القرآني العربي

قراءة تحليلية في فيلم «القرآن الكريم.. جمعًا وكتابة»

● د. خديجة بريك ●
باحثة في السينما الوثائقية/ الجزائر

إنَّ القرآن الكريم الذي نزل على قلب رسول الله ﷺ أول آية من كتاب الله في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، وما جاءت به السنة النبوية الشريفة من هدى راشد، وبلاغ صادق سليم حمله الصحابة من بعد ثم التابعون من علماء الأمة كان ذلك كله مردًا للمسيرة الإعلامية قديمًا وحديثًا خصوصًا بعد أن أصبح الإعلام وثيق الصلة بكافة الأنشطة الإنسانية ومؤثرًا فاعلًا في تشكيل القيم والمثل على أسس الحق والاستقامة والفضيلة في عصر تسابق فيه دعاوى العلمانية في ركب موجة التقنيات الحديثة والسابق العلمي والفكري في مجال ثورة الاتصالات الحديثة مما جعل الإعلام اليوم أداة في أيد غريبة عن الإسلام تعمل في تشكيل ألوان من السلوك والمفاهيم في وقت تراجعت فيها الجهود الإسلامية عن وضع خطط تستثمر لحساب

الدعوة الإسلامية رغم ما تراه من محاولات الباحثين والدارسين تعوذهم الكثير من التقنيات الحديثة والإمكانيات الفنية.

ولما كان واجب على الأمة الإسلامية تبليغ دعوتها للناس جميعًا كان من الضروري أن تستخدم كل وسيلة وتقنية حديثة تخدم هذه الدعوة بحيث يمكن توظيفها وحسن استغلالها لإبراز الصورة الناصعة للإسلام العظيم الذي بنى أعظم حضارة عرفها التاريخ وللرد على الشبهات التي شوهت صورة الإسلام والمسلمين، ومن أهم أبرز الفنون الإعلامية السينما الوثائقية (الفيلم الوثائقي) الذي ما فتئ يشهد الإقبال والاهتمام في العالم العربي والإسلامي.

لقد أدرك الناقد الفرنسي أندري بازان (André Bazin)، منذ الخمسينات، في مؤلّفه الشّهير «ما هي السّينما؟» Qu'est - ce que le cinéma? أنّ الصّور الوثائقيّة للأحداث الرّاهنة (Les actualités) هي مادّة الفنّ السّينمائي الأولى والأساسيّة.

وربّما هذا هو السّبب الذي دفع المخرج الإيطالي رُوبارتُو رُوسلّيني Roberto Rossellini إلى إعادة النّظر في ماهيّة الفنّ السّابع وفي وظائفه المتعدّدة بالرّجوع به، كما يتجلّى ذلك في جلّ أفلامه، إلى مصدره الجوهري وهو التّصوير التّسجيلي والتّوثيقي، ولعلّ هذه القوّة التي كانت تتميّز بها السّينما في فترة سابقة، هي في طريق التطور والانتشار حاليًّا لأنّ الإيمان بالفنّ السّينمائي وبقدراته يمرّ بفترة حسّاسة من التزايد...

لقد أضحى الفيلم الوثائقي اليوم، شكلًا فنيًّا/ بصريًّا، قادرًا على منافسة، بل تجاوز فعل وانتظارات من يشتغل في مجال الفيلم الروائي،

وذلك راجع إلى طبيعة ما يطرح فيه من قصص وقضايا واقعية لا تخلو من حس إبداعي وإنساني، قصص هي اليوم، تجر العديد من فئات مجتمعاتنا البشرية داخل ما يسمى بهذه القرية الصغيرة، لتحقيق المزيد من متعة التلقي، وقد تزداد الأمور أهمية حينما يتعلق الأمر بمجتمعاتنا العربية والإسلامية، الباحثة عن بر الأمان، في ظل ما تعيشه اليوم من أحداث ورغبة قوية، في تحولات نافعة ومفيدة لكل بنياتنا الفكرية والتربوية والروحية والاجتماعية والسياسة والفنية والدينية.

في ظل هذا القول، من الممكن أيضًا تسجيل ازدياد الاهتمام بالفيلم الوثائقي من لدن العديد من مكونات مجتمعاتنا العربية الإسلامية سواء من بيدهم القرار الإعلامي أو الثقافي، أو من طرف من «يتلقى» هذه القرارات انطلاقًا من ذلك تأتي هذه الورقة لتسلط الضوء على إحدى الإنتاجات العربية الوثائقية التي تصب في بوتقة التعريف بمكتسبات ومقومات الأمة الإسلامية وكذا نشر مَضامِين الوحي المعصوم ووَقائع الحياة البشريَّة المحكومة بشرْع الله تعالى إلى الناس كافَّة، كما تهدف لتقييم التجربة الوثائقية العربية التي تناولت موضوع القرآن الكريم، وذلك من خلال التطرق إلى العناصر والمكونات الأساسية الفنية للفيلم الوثائقي ـ المختار ـ ومدى قدرة هذا الأخير على معالجة علوم القرآن الكريم كمحتوى متكامل ودقيق، يصل للمشاهدين المسلمين وغير المسلمين؛ ليؤثر فيهم ويضمن استمرارية المتابعة، وانتشار رسالته، وسيتطرق هذا المقال للنقاط التالية:

١ ـ مفهوم الفيلم الوثائقي.

٢ - قراءة في الفيلم الوثائقي «**القرآن الكريم.. جمعًا وكتابة**».

٣ - توصيات.

أولًا: مفهوم الفيلم الوثائقي:

البرنامج الوثائقي: كان أول تعريف للفيلم الوثائقي ظهر مع المقال الذي كتبه **جون غريرسون** John Grierson في مجلة «نيويورك صن» New york son فيفري (١٩٢٦م): «أنه معالجة الأحداث الواقعية الجارية وفيه خلق فني»[(١)]، ويؤكد ذلك **جورج سادول** George Sadoul استنادًا لما قاله المؤرخ التاريخي **جون فيورد** John Veroud بأن الفيلم الوثائقي أخذ اتجاه سينماتوغرافيا منذ (١٩٠٦م)، أما بعد (١٩١٤م) فقد أصبح مصطلحًا من خلال المقال الذي كتبه غريرسون[(٢)] ويقول في هذا الصدد: «أننا اعتمدنا في تمييز الأفلام الوثائقية عن غيرها بأنها تلك الأفلام التي تصور العناصر الطبيعية، واعتبرنا أنَّ هذه العناصر الطبيعية من أهم ما يميز هذه الأفلام عن غيرها، وحينما قامت الكاميرا بالتصوير في المناطق الحقيقية سواء كان ما صور مواد خاصة بالجرائد السينمائية أو المجلات السينمائية وأفلام معروفة ذات الشكل الدراسي، أو التي تعتمد على الاستطراد أو الأفلام التعليمية، أو الأفلام العلمية فإننا نعتبر هذه المواد جميعًا أفلام وثائقية»[(٣)].

---

(١) فورست هاردي: السينما التسجيلية عند غريرسون، ترجمة: صلاح التهامي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ١٩٦٥م، (ص: ٥).

(٢) Passak Jean. Dictionnaire du cinéma. librairie Larousse. Paris - 1986/ P 145

(٣) فورست هاردي: السينما التسجيلية عند غريرسون، ترجمة: صلاح التهامي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ١٩٦٥م، (ص: ١١١).

أما جورج سادول Georg Sadoul فيعرفه: «بأنه كل إنتاج سنيماتوغرافي لا يصدر عن الخيال ويرتبط بوصف واسترجاع الواقع، إنه عبارة عن اختيار علمي وفلسفي للفن السابع»(١)، كما يعرفه قاموس «روبار الصغير Petit Robert»: «الفيلم الوثائقي هو فيلم تثقيفي يعتمد على الوثائق والأحداث المسجلة لكن غير منجزة بالمناسبة، وقد يغير الفيلم الوثائقي اسمه أحيانا، وقد يكون ريبورتاجًا تحقيقيًا فيلميًا».

أما الكلاسيكيان «لوميار ومليار» فيعرفانه: «أنه جاء كرد فعل للسينما الترفيهية، فبالنسبة لهما الفيلم الوثائقي هو شريط يرفض الخدع التقنية الجمالية والسياسية الموجودة في الأفلام التجارية»(٢).

وتعرفه الموسوعة السينمائية: «الفيلم الوثائقي هو نقيض الفيلم الخيالي هدفه الأساسي الإعلام والتعليم ويولي أهمية كبرى للمضمون على حساب الشكل الذي تقدم فيه الصورة. الفيلم الوثائقي يهتم بكل المواضيع والقضايا كالتاريخ والأحداث الجغرافية، التحقيق الاجتماعي، الفنون الجميلة، العلوم والتكنولوجيا، ويستعمل الفيلم الوثائقي كل التقنيات: اللقطة الحقيقية، الوثائق، الصورة الثابتة، اللقطات السريعة والبطيئة، والرسوم المتحركة. ويحتوي الفيلم الوثائقي على كل أنواع الأفلام منها الوثائقية العادية والأفلام التي تكتسي صبغة عالمية عالية»(٣).

---

(١) Passak Jean O.P.CIT, P 145

(٢) Phillip Pillard.Histoire, art et industrie, la revue du cinéma image et son No 348, Mars 1980, P 38

(٣) Roger Bossinot?. encyclopédie du cinéma- imprimerie chois Deffosses Neugravure, Parîs No 295/1967. P465 et 466

ونخلص في الأخير إلى تأكيد ما ذهب إليه «ريتشارد ماكان» أنَّ أصالة الفيلم الوثائقي وقيمته لا تنبع من اعتماده على مادة من الواقع فقط، بقدر ما ترجع إلى أصالة توظيف هذه المادة الواقعية» بمعنى أنَّ قدرة صانع الفيلم» المخرج» على توظيف الواقع هي التي تعطي إنتاجه القيمة والتأثير، بمعنى أنَّ وثائقية النتيجة هي الأهم والمحك الأساسي في الفيلم الوثائقي الجيد، لا مجرد وثائقية المادة المصورة وإلا اقترب واختلط الفيلم الوثائقي بأفلام المعرفة التي تعتمد هي أيضًا على مادة حقيقية من الواقع موثوق بها ولكنها لا تتجاوز في هدفها الإخبار أو الإحاطة أو التعريف، وهكذا يتفق ريتشارد ماكان» مع «جون جيريرسون» في أهمية ومنطقية التفرقة بين فروع الإنتاج التوثيقي حيث التعدد والاختلاف في المضامين والأهداف والأشكال الفنية وأساليب الإعداد. ولقد بين «سيد سعيد» في مناقشته لفلسفة الفيلم الوثائقي مبينًا ميزته: التي تنطلق من فكرة الوثيقة وهي المادة الخام المصورة، التي تشير إلى واقع أو حدث ما في زمن محدد، ومكان محدد، هذه الوثيقة مكتفية بذاتها وتتسم بالحيادية والموضوعية، ولا تدل على شيء إلا على نفسها، والواقع الذي استنسخته، إنها أشبه ببصمة الأصابع متفردة، وتتميز بقيمة توثيقية من حيث إنها تتقاسم الوجود مع الشيء أو الأصل الذي نقلته،... والوثيقة تتفاعل بأقل قدر مع التصوير وفنياته، فهي تتوقف عند حدود، هذه الحدود في كونها وثيقة، فهي معتمدة في مصداقيتها على نسخ الواقع رغم أنها تضل أدنى منه ـ وتزداد قيمتها كوثيقة فقط عند غياب الواقع أو زواله، وهي في هذا الإطار لا تستطيع التغلب على وضعها «الغير سينمائي» إلا عندما يتم أفلمتها أي تحويلها

إلى فيلم سينمائي، وهو ما نسميه **فيلم وثائقي**، فالفيلم الوثائقي هو الذي يستخدم هذه الوثيقة أو ضمها إلى مجموعة وثائق أخرى للتعبير عن موقف أو رسالة تعتمد رؤية ذاتية لصاحب الفيلم وتحليلها وتفسيرها للكشف عن مغزى ما، وعندما تخضع الوثيقة للتفسير، أو استخدامها كحامل لدلالة خارج نطاق كونها وثيقة، فإنها تفقد حيادها وموضوعيتها، فالفنان يتدخل برؤيته الذاتية بإعادة تنظيم المادة المصورة الخام وإثراؤها بأسلوب فني من أجل إضافة أبعاد جديدة لها، هنا تتحول الوثائق إلى فيلم، ويتحول المشاهد من التعرف على ما يعرفه.. إلى ما لا يعرفه، وحيث يمده الفنان بوسائل تساعده على تعلم كيف ينظر إلى ماجرى أو مايجري، ودون أن يفقده احترامه للواقع المصور الذي حاول الفنان مضاعفته فنيًا ومضاعفة تأثيره». هذا يعني أنَّ المخرج في الفيلم الوثائقي يقوم باختيار وثائق من الواقع وعن الواقع ولكنه يقدمها إلى المتلقي في شكل فيلم وثائقي وذلك بعد أن يقوم بتنظيم هذه الوثائق وفق فكرة ما، وهدف ما، إذ يعتمد على هذه الوثائق لمنح المصداقية للفكرة أو الهدف الذي يقوم ببنائه، كوسيلة مادية مقنعة، قادرة على الوصول إلى استنتاجات محددة.

ثانيًا: قراءة في الفيلم الوثائقي «القرآن الكريم..جمعًا وكتابة»:

* ملخص الفيلم:

فيلم «جمع وكتابة القرآن الكريم» فيلم يتعرض إلى نزول القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ متناولًا هجرة الرسول الكريم وكيفية حفظه ﷺ للقرآن الكريم ونقله إلى الصحابة الكرام وكل الحيثيات التي

دفعت إلى تدوينه وجمعه في مصحف واحد لحفظه من التحريف، كما تطرق إلى مراحل جمع القرآن الكريم، بدءًا من مرحلة **الجمع الأول** في عهد رسول الله حين اتخذ النبي ﷺ كتّابًا للوحي، وكان كلّما نزلت عليه آية أمرهم بكتابتها، وأرشدهم إلى موضعها من السورة، فيقول مثلًا: ضعوا آية كذا بين آية كذا وآية كذا من سورة كذا. ولمّا لم تكن وسائل الكتابة من الأوراق والجلود متوفرة في تلك الأيام، فقد كان كتّاب الوحي يكتبون الآيات المنزلة على عدة مواد، منها العُسُب، واللِّخاف، والرِّقاع، والأقتاب، وقطع الجلود، والأكتاف، ونحوها. أما مرحلة **الجمع الثانية**: فهي تلك المرحلة التي تولى فيها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه جمع القرآن الكريم، وكذا إشارة للفترة التي اشتدّ فيها القتل بالقرّاء في حروب الردة التي خاضها المسلمون في عهد أبي بكر (رضي الله عنه)، حيث خاف عمر بن الخطاب من ضياع القرآن بموت قرائه، فاقترح على أبي بكر جمع القرآن، وبعد تردد وافق أبو بكر، وأمر زيد بن ثابت بجمع القرآن كله في موضع واحد، فبدأ زيد بجمع القرآن من المواد التي كتب عليها، والمتناثرة عند الصحابة، واستنساخها في صُحُف مرتّبة الآيات. ومرورًا ببقية المراحل التي مرت بها عملية جمع القرآن الكريم، إلى أن يصل إلى مرحلة الطباعة الحديثة والإشارة في الأخير إلى شروط طباعة القرآن في المطابع في البلاد الاسلامية.

* **التصوير**:

إنَّ خصوصية التصوير في الفيلم الوثائقي تختلف قطعًا عن التصوير في الفيلم الروائي على الرغم من أنَّ التصوير يتم في الوسيلة التقنية

نفسها، إلا أنَّ الخصوصية تكمن في كون الفيلم الوثائقي ينهض على مسك الطبيعة وهي متلبسة بالفعل، وهذا يتطلب اقتناص الحقيقة بعيدًا عن حجم اللقطة أو زاوية التصوير أو اللقطة الجيدة التكوين. وخصوصية التصوير في فيلم «**القرآن الكريم، جمعًا وكتابة**» تأتي من خصوصية نوع الفيلم وهو الفيلم التاريخي، وبالتالي فإنه لم يشتمل على التصوير الواقعي الميداني، مكتفيًا بذلك بتصوير المقابلات مع الشخصيات المسؤولة على سرد الحقائق التاريخية المرتبطة بجمع القرآن الكريم وكتابته، إلى جانب تصوير بعض اللقطات التي استخدمت كـ«ديكودراما» داخل العمل، كما اعتمد الفيلم على اللقطات القريبة التي ركزت على مختلف الكتابات والآيات القرآنية المتضمنة والتي جاء اختيارها مرتبطًا بالأفكار التي تطرق إليها تباعًا، حيث مثلت بذلك مادة مصورة أساسية طيلة العرض، وإجمالًا يمكن أقول: إنَّ اللقطات المصورة المدرجة في فيلم «القرآن الكريم، جمعًا وكتابة» استطاعت أن توفر مصداقية تجسيد الواقع التاريخي الإسلامي من خلال دخولها في علاقة تبادلية مع المتفرج، عملت على التأثير الكامل في وعي المشاهد.

*** المونتاج:**

يعد المونتاج عنصرًا لا غنى عنه في أي فيلم وخصوصًا الوثائقي، لأنه يربط الموضوعات والأحداث في نسق صوري موحد ويعطى دلالات إضافية سواء في نطاق المعنى أو التأثير أو القيمة الفنية والتعبيرية للفيلم، كما يوفر المونتاج دفعة درامية عالية عند استخدامه في الفيلم الوثائقي من حيث القدرة على تصعيد الأحداث والأفعال ووصفها في إطار عملية متصارع وتنازع وتقابل صوري وفني بحيث

يخلق نوعًا من التشويق والإثارة وخلق نوع من حب الفضول والاستطلاع لدى المتلقي تدفعه إلى متابعة عرض الفيلم والاستغراق معه بحيث يتعرف ويستنطق عملية التأثير والتنوير والإقناع التي قد تحصل لديه، وفي فيلم «القرآن الكريم، جمعًا وكتابة» استطاع المخرج توظيف تقنيات المونتاج بشكل كبير وفعال، من خلال الربط بين العديد من المقابلات من خلال التصريحات والشروحات التي قدموها وبين اللقطات الأرشيفية وبين مشاهد إعادة بناء الوثيقة وإعادة تمثيل جزئيات منها، وقد اعتمد المخرج أثناء المونتاج على نوعين من البنائية:

أولًا: البنائية بالاعتماد على الشخصية **The Character-driven** ويقصد بها بناء الفيلم كله على شخصية واحدة، أو ربما عدة شخصيات تشترك في قضية واحدة، وقد يكون بدون صوت المعلق، إنما بأصواتهم Voice ـ over ويدمج مع اللقطات من موقع التصوير، واستخدام هذا النوع من البنائية يزداد في الوثائقيات ذات الطابع التاريخي الذي يقوم على سرد الحقائق التاريخية، وقد عمد المخرج في فيلم «القرآن الكريم، جمعًا وكتابة» على هذه البنائية من خلال اعتماده على مجموع الشخصيات المختارة والمرتبطة ارتباط وثيق بالموضوع والتي في مجملها دكاترة ومشايخ في الدراسات الإسلامية.

ثانيًا: البنائية بالاعتماد على الرواية (التعليق الصوتي): **The Narration-driven** وهو النمط الكلاسيكي في الأفلام الوثائقية، بأن يكون الفيلم مصحوبًا بصوت المعلق Narrator في أجزاء الفيلم للتوضيح والربط بين الفقرات.

* المكان:

يعد المكان في الفيلم الوثائقي وثيقة تعبر عن صدق الحادثة أو الموضوع وغالبًا ما يتم ذلك من خلال إعادة تصوير الأحداث وبنائها في أماكنها وهذا ماشاهدناه في فيلم «القرآن الكريم: جمعًا وكتابة» حيث عمد المخرج على الاشتغال على مقاربة المكان الذي جرت فيه الأحداث.

المكان في هذا الوثائقي غير متغير نسبيًّا بسبب الموضوع التي يتناوله وكذلك بسبب المدة الزمنية الكبيرة والممتدة لعقود وكذلك لتشابه الأمكنة ذات البيئة الصحراوية التي جرت فيها الأحداث، وقد تعامل المخرج مع المكان من خلال العديد من الوسائل وفي مقدمتها: بناء المكان في مشاهد إعادة الحدث، حيث حاول المخرج بنائها بدقة لتشبه المكان العربي في شبه الجزيرة العربية، واستخدم الممثلين لكي يؤدوا دور الشخصيات العربية كما في مجموعة المشاهد التي صورت الصحابة - بدون بروز وجوههم - ومجموعة من كتاب القرآن الكريم،،، وهم يدونونه على الألواح والجلود،،، وهذا ما يطلق عليه بتقنية «الديكودراما»(١)، كما لجأ المخرج إلى الاستناد إلى لقطات من فيلم «الرسالة» للمخرج «مصطفى العقاد» وتدعيمها للوثائقي للدلالة على بعض الأحداث كهجرة الرسول من مكة إلى المدينة، وللتعبير عن بعض المعارك التي خاضها المسلمون كحروب الردة، كما استخدم

---

(١) الديكودراما: إتجاه جديد في السينما الوثائقية، وهو إدخال عنصر التمثيل في الأفلام الوثائقية بالاعتماد على الممثل الغير محترف.

خرائط توضيحية لتصف بعض الأماكن التي جرت فيها العديد من الأحداث والمعارك التي خاضها المسلمون، وتنقل الصحابة.

* الزمان:

الزمان في فيلم «القرآن الكريم: جمعًا وكتابة» هو زمن ممتد لعقود عدة ومن هنا تأتي صعوبة التعامل مع تلك المدة الزمنية لا سيما في الأفلام الوثائقية التي تحاول نقل الواقع كما هو من دون التدخل فيه، وقد وظف عنصر اللغة السينمائي بشكل فردي أو مجتمع للتعبير عنه، لأنه يتضح من خلال سرد الشخصيات المشاركة في الفيلم الأحداث المرتبطة.

* الشخصيات:

يتميز الفيلم الوثائقي بأن شخصياته هم الشخصيات الاعتيادية والطبيعية التي عاصرت الحدث وبذلك يكون الممثل في الوثائقي هو ممثل غير محترف ولا ينقل أي مشاعر أو أحاسيس خارجة عن الشخصية وإنما هو يجسد الأفعال والأحاسيس الطبيعية له، كما يعكس المضامين التي تحتوي على طبيعة عملها وبيئتها وخلق التعاطف معها والشخصية في الوثائقي تستمد قوتها من العمل داخل الفيلم لأنَّ الفعل الحاصل يرتبط بالشخصية، ونظرًا لخصوصية موضوع فيلم الوثائقي: جمعًا وكتابة»، التي تحتم عليه عدم اللجوء إلى شخصيات تمثل شخصيات دينية كشخصية الرسول ﷺ، أو الصحابة أو تجسيد الصحابة الذين ذكر اسمهم في الفيلم، فقد لجأ المخرج إلى استخدام تقنية المقابلات الشخصية التي عبرت هي عن أشخاص الفيلم الدينية، حيث

أضفت الواقعية والمصداقية للموضوع فضلًا عن دورها في تنظيم سرد الأحداث التاريخية المرتبطة بتاريخ القرآن الكريم وجميع المعلومات والبيانات المتعلقة به، وقد بدت الشخصيات المتحدثة في العمل متنوعة ومتعددة،كما اكتسبت المعلومات التي وردت على لسانهم قوة تأثيرية كبيرة ذلك أنها نابعة من مصدر عليم ومتخصص في موضوع الفيلم، والشخصيات المشاركة هي:

- **د. محمد مختار المهدي**: أستاذ الدراسات العليا بكلية الدراسات الإسلامية، عضو مجمع البحوث الاسلامية وأستاذ اللغة العربية.
- **د. محمد عبدالحميد الرفاعي**: أستاذ متفرع بقسم التاريخ الإسلامي كلية دار العلوم.
- **د. عبدالرحمن عبدالله**: أستاذ علوم القرآن ورئيس قسم أصول الدين بكلية الدراسات الإسلامية.
- **د.عبدالمقصود باشا**: أستاذ التاريخ الإسلامي بجامع الأزهر.
- **د.على عبدالباقي شحاتة**: أمين عام المجمع الإسلامي.
- **الشيخ. عاشور محمود**: وكيل الأزهر السابق.

*** الصوت:**

تم تفعيل الشريط الصوتي في فيلم «**القرآن الكريم: جمعًا وكتابة**» من خلال التعامل مع بعض مفرداته خصوصًا تلك التي تشمل على تعليق، بسبب طبيعة الموضوع الذي يتحدث عن قداسة القرآن الكريم ومراحل نزوله وجمعه. إنَّ تفعيل الشريط الصوتي لا بد أن يرتبط بالفكرة الأساس التي يريد الفيلم تأكيدها، كما هو واضح في فيلم

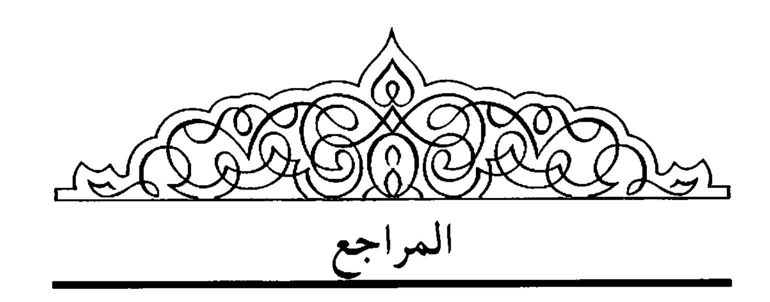
«القرآن الكريم: **جمعًا وكتابة**» الذي كان مليء بالأجواء الروحية والتاريخية التي نقلت المشاهد والمتلقي إلى فترة النبوة فجاءت مفرداته الصوتية من تعليق وموسيقى ومؤثرات صوتية تصب في ذات الفكرة معمقًا بذلك الإحساس بالموضوع، ومضاعفًا القدرة على الإقناع، فقد لعب التعليق دورًا مهمًا في ربط الأحداث فمرة يكون التعليق هو العارف بكل شيئ، ومرة يكون طارحًا لتساؤلات تجيب عنها الصورة أو حديث بعض الشهود، وكان مرافقًا للصورة في معظم أوقات الفيلم، يصف ما جرى على مدى الحقبة الزمنية التي تناولها الفيلم، من خلال كم من المعلومات التي تسند الصورة المعروضة على الشاشة، كما وظف المخرج الصمت بطريقة مؤثرة في بعض مشاهد الفيلم لاسيما تلك التي تناولت الحروب التي حدثت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم «حروب الردة». حيث كان الصمت يسود لتبقى الصورة وحدها تفسر ما حدث، إلى جانب استخدام لازمة موسيقية واحدة طوال وقت الفيلم يتصاعد صوتها مع تصاعد الأحداث وتنخفض تبعًا لذلك.

توصيات:

١ : إيمانًا منا جميعًا بمدى أهمية الفيلم الوثائقي كرسالة فنية وثقافية وإعلامية ودينية، وبمدى احتياجنا إليه كوسيلة لها تميزها على طريق واجهة ما يتعرض له الواقع الإسلامي من تحد فرضته المتغيرات الدولية المعاصرة، تكون التوصية الأولى هي بذل الجهود من أجل عقد الاتفاقيات العربية اللازمة التي تضمن وضع الضوابط لاحترام الفيلم الوثائقي الإسلامي في جميع محطات التلفزيونات العربية الأرضية

والفضائية وذلك بمضاعفة إنتاجه مع حفز الجميع لتخصيص مساحات أسبوعية ماسة ضمن الخرائط البرامجية لبث الأفلام الوثائقية بشكل دوري ثابت أسوة بما هو متبع بالنسبة للأفلام الروائية الطويلة بحيث تستغل هذه المساحات في بث الأفلام الوثائقية من الإنتاج المحلي والأفلام العربية التي تتوفر عن طريق التبادل، وهذا سيقدم دعمًا كبيرًا للأفلام الوثائقية الإسلامية لأن انتظام بثها بشكل ثابت سيخلق مدًّا دعويًا عاليًا.

٢ : على طريق توظيف الفيلم الوثائقي في خدمة قضايا الإسلام والمسلمين وقضايا القرآن الكريم، ولحفز المخرجين للاهتمام بهذه مواضيع تكون التوصية الثانية هي دراسة تخصيص جائزة مالية كبيرة تسمى «السينما الوثائقية والقرآن الكريم» تمنح كل سنة لأحسن وثائقي عربي أو أجنبي إنتاجه يخدم فكرة قضايا القرآن الكريم، ويتم تخصيص نصف مبلغ الجائزة للمخرج والنصف الآخر للجهات المنتجة على أن يتم بث الفيلم الفائز في جميع التلفزيونات العربية والإسلامية في وقت واحد.



المراجع

١ ـ فورست هاردي: السينما التسجيلية عند غريرسون، ترجمة: صلاح التهامي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ١٩٦٥م.

2 - Barnouw Erik, Documentary (a history of the non fiction), oxford university press. new york,1983.

3 - Gilles Marsolais. L'aventure du cinéma direct. Serghers. Paris. 1974.

4 - Kat Ephraim, the film Encyclopedia, the Putnam publishing group, New York. 1982.

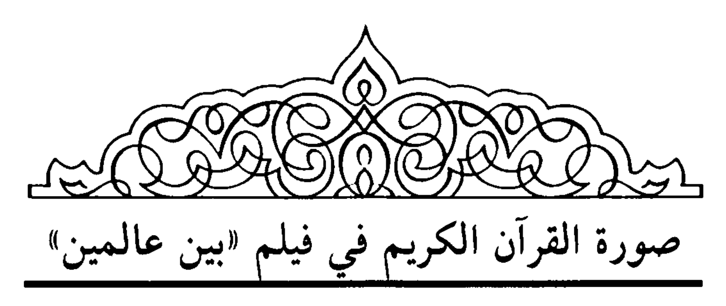
5 - littlejohn, steven (1983), heories of humane communication.(2nded) belmont, CA.Wadsworth publishing company.

6 - Passak Jean. Dictionnaire du cinéma, librairie Larousse. Paris - 1986.

7 - Phillip Pillard.Histoire, art et industrie, la revue du cinéma image et son No 348, Mars 1980.

8 - Renc Jeans et Charle Ford. Histoire illustrée du cinéma. Tome 2. Edition.

9 - Roger Bossinot?. encyclopédie du cinéma - imprimerie chois Deffosses Neugravure, Paris. No 295/1967



صورة القرآن الكريم في فيلم «بين عالمين»

(Between two worlds)

● د. كريمة الليحياوي ●

مدرسة الملك فهد العليا للترجمة/ المغرب

نقدم من خلال هذه المقالة دراسة تحليلية ووصفية نبرز من خلالها صورة القرآن الكريم في الفيلم الوثائقي «بين عالمين» (Between two worlds) الذي أخرجه أوبيديو سالازار (Ovidio Salazar).

يتناول هذا الوثائقي عرض حياة كنوت برنستروم (Knut Berstrom) وهو شخصية دبلوماسية سويدية رفيعة المستوى، وجد في القرآن الأجوبة الواضحة والمقنعة عن عدة أسئلة كانت تشغل باله، فاعتنق الإسلام.

هذا الفيلم الوثائقي هو عبارة عن شهادات لعلماء وأئمة سويديين ومغاربة، وكذا بعض أصدقاء ومعارف السفير السويدي (كنوت برنستروم)، تخص الجانب الأخلاقي فيه والعلمي وتبين أهم اهتماماته في بحثه عن الحقيقة، ورحلته بين الأديان وتأثره بالقرآن وبالمجتمعات العربية المسلمة، كما تبرز أهم إسهاماته العلمية التي حققها، لتبليغ

الدين الإسلامي بالسويد ومساعدة المسلمين هناك، هذه الإسهامات تتمثل بالخصوص في ترجمته للقرآن باللغة السويدية، ترجمة مميزة عن غيرها من الترجمات من حيث الشكل والمضمون، بالإضافة إلى الشهادات (شهادات الضيوف)، تضمن هذا الفيلم الوثائقي عدة مشاهد تمثيلية صورت في كل من المغرب والسويد، تعرض لأحداث وملابسات عاشها هذا السفير، جل هذه المشاهد التمثيلية تصور السفير كنوت منشغلًا بقراءة الكتب أو بتدبر القرآن، كما تصوره منشغلًا بتأمل الطبيعة وكذا المجتمعات المسلمة التي عمل بها سفيرًا، خاصة المجتمع المغربي من خلال تجوله في الأحياء الشعبية.

خصص الثلث الأول من الوثائقي لحياة كنوت وأخلاقه وعلمه، أما الثلثين الباقيين فخصصا للحديث عن القرآن الكريم ومدى تأثر هذا السفير به حين وجد فيه التوازن الوجداني المنشود الذي ظل يبحث عنه طويلًا في النصرانية، كما صور لنا هذا الوثائقي الاهتمام الخاص لـ(كنوت برنستروم) بالقرآن وعنايته به ودراسته له، هذا الاهتمام الذي توج بإعداد ترجمة مميزة للقرآن إلى اللغة السويدية.

من خلال الصور، اهتم الفيلم الوثائقي «بين عالمين» بالقرآن منذ البداية؛ فبعد أن افتتح الفيلم بصورة فوتوغرافية لكنوت برنستروم، تم عرض صورة لزوابع ورياح تلتها صورة لظل شجرة ضخمة ظهرت بعدها مباشرة صورة للقرآن وهو مفتوح الدفتين، هذه الصور تجسد حياة السفير قبل وبعد الإسلام؛ فالزوابع تمثل حيرته وتقلبه في البلاد بحثًا عن الحقيقة، والظل يمثل الطمأنينة والسكينة التي عاشها في كنف القرآن، فكأن ذلك الظل هو في الحقيقة ظل القرآن، وتتكرر في الفيلم

مشاهد أخرى تصور المصحف القرآني مفتوح الدفتين، أو صور لآيات من القرآن، أو لوحات تتضمن آيات قرآنية كانت معلقة على جدران منزل (كنوت)، كما تضمن هذا الفيلم الوثائقي صور أخرى يظهر فيها (كنوت برنستروم) يحمل المصحف ويقرأ القرآن أو يتدبر آيات بعينها يتم ذكرها في الوثائقي أو ذكر معناها.

في البداية، عرض هذا الفيلم الوثائقي شهادات كانت كلها تؤكد أنَّ (كنوت برنستروم) يتميز بأخلاق رفيعة وشيم عالية، وأنه كان أنيقًا في مظهره وأسلوبه ومتواضعًا رغم انتسابه للعائلة المالكة بالسويد، كما تؤكد الشهادات أنه كان على درجة عالية من الذكاء، وأن طريقته في التواصل كانت غير عادية مما حببه إلى كل من رآه، كما كان واسع الثقافة ويتقن العديد من اللغات قراءة وكتابة.

حين كان سفيرًا لبلده في عدة بلدان غربية وعربية، تقول الشهادات أنه عمل بلا كلل لمد جسور التواصل بين الثقافات ولتعزيز التفاهم بين الشعوب، وحسب الشهادات دائمًا فهذه الجهود التي بذلها لم تشف غليله، إذ كان في داخله إحساس عميق بأنَّ الحياة تحمل ما هو أكثر من ذلك؛ فشرع في بحثه عن معنى وجوده، وقضى جل حياته باحثًا عن الحقيقة، متتبعًا الدليل والأخبار بكل دقة وضبط.

حسب شهادات هذا الفيلم الوثائقي، كان (كنوت برنستروم) مسيحيًا لوثريًا، غير أنه لم يكن مهتمًا بالدين، وبعدما التقى أناسًا كاثوليكيين، من مستوى رفيع في الثقافة والمعرفة، أصبح مهتمًا بالدين فتحول إلى الكنيسة الكاثوليكية، لكنه شعر بعد ذلك أنَّ النظام الكاثوليكي تغير

تغيرًا كبيرًا ولم يعد يمثل ما ينشده من الاستقرار، وأصابته خيبة أمل، فترك الكاثوليكية وبدأ في البحث مرة أخرى عن الحقيقة المنشودة، وقد تضمن هذا الفيلم الوثائقي مشاهد تمثيلية تجسد كنوت منشغلًا بالبحث عن ضالته، أحيانًا من خلال تصفحه للقرآن ودراسته له، وتوجهه إلى المسجد ومقابلة الإمام وتحدثه معه، وأحيانًا أخرى من خلال قراءته للإنجيل، وتدبره له، وقصده الكنيسة وتجوله في رحابها، فصورته هذه المشاهد وكأنه يقارن بين النصرانية والإسلام ويوازن بينهما، حتى وجد بغيته في الإسلام وارتضاه دينا.

وقد نقل أحد الضيوف مقولة لـ(كنوت) تجسد ارتياحه الكبير في الدين الإسلامي، وتعبر على أن بحثه كان فطريًا وعلى درجة عالية من الموضوعية، فهو كان يبحث عن مستقر آمن تطمئن فيه روحه وذاته ويقتنع به عقله وضميره، قال (كنوت): «لقد عدت إلى موطني الأصلي حين وجدت الإسلام»، ويقول الضيف في هذا الشأن أنَّ كنوت لم يجد في نفسه أي ثقل من الإسلام، وبأنه وجد به توازنًا في حياته، ووجد في القرآن إجابات عن تساؤلاته، وبأنه وجد السلام في الإسلام، فكان ذلك عنده هو الصحيح، وتؤكد الشهادات أنَّ الإسلام دخل قلبه قبل أن يعلن ذلك بوقت طويل، لكنه لم يعلن إسلامه إلا عندما تقاعد عن عمله بوزارة الخارجية.

تؤكد الشهادات في الفيلم الوثائقي أنَّ المغرب كان وجهة مميزة لـ(كنوت برنستروم) في رحلة بحثه الوجودي، حيث عايش عن قرب ولأول مرة مجتمعًا إسلاميًا تقليديًا، كما تؤكد الشهادات أنه كان رجلًا منفتح العقل متواضعًا يحب التواصل والحديث مع الناس على اختلاف

سنهم ومستوياتهم العلمية والاجتماعية، وهذا حسب الشهادات هو ما جعل (كنوت) يرى الإسلام بصورة مختلفة عن غيره من الدبلوماسيين، فكان تأثير هذا المجتمع فيه كبيرًا.

اهتم (كنوت برنستروم) اهتمامًا بالغًا بالقرآن وارتبط به ارتباطًا وثيقًا، فحسب شهادات الفيلم الوثائقي، كان كنوت كثيرًا ما يقرأ القرآن بخشوع وعيناه دامعتان، وقد جسدت المشاهد التمثيلية هذه الحالة حيث صورت (كنوت) عدة مرات يقرأ القرآن بتدبر كبير، وتقول الشهادات: إنَّ (كنوت) تلقى القرآن بقلبه ووجدانه وتلمس نورانيته ثم تلا ذلك التصديق القلبي والروحي إقرار عقلي، من خلال ما وجد في القرآن من إجابات شافية كافية لأسئلة كانت تؤرقه في الماضي، وقد أبرز هذا الفيلم الوثائقي جليًّا للمشاهد من خلال الشهادات، منظور (كنوت) لحقيقة القرآن من خلال نقل مقولة لـ(كنوت) كان يرددها في كثير من المناسبات وهي: «إنَّ القرآن ليس نصًّا كلاميًّا فقط، بل هو نص ووحي نورانيين» ثم يعلق الضيف على هذه المقولة؛ بأنَّ (كنوت) يرى أنَّ القرآن يعرف بالقلب أكثر من العقل، وأنه كان يؤمن أنَّ أكبر درجة في العلم هو القلب، وليس العقل، ويستدل على ذلك بالآية القرآنية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)، وتضيف الشهادة أنَّ كنوت كان يتساءل كيف يعمى القلب؟ واستخلص بعد ذلك أنَّ القرآن هو خطاب للقلب لكي يرى بالنور وليس فقط بالبصر الحسي. وقد بين هذا الفيلم الوثائقي كيف تأثر (كنوت برنستروم) بآيات قرآنية أخرى، كان لها وقع عميق في نفس كنوت غيرت مجرى حياته، ومن بين هذه الآيات التي عرضها الفيلم؛ قوله تعالى في سورة الفلق:

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (الفلق: ٢) فمن خلال شهادة الضيف؛ كان (كنوت) يؤمن أنَّ الخير يأتي كله من الله، لكنه كان يبحث إن كان الشر كذلك مخلوقًا من الله، عكس ما يعتقد المسيحيون، وكان كنوت يقول: بما أنه لا خالق إلا الله فلابد أن يكون مصدر هذا الشر من خلقه، وهو تمامًا ما يقول به القرآن، فكانت حسب الشهادة هذه الآية الكريمة بالنسبة لـ(كنوت) مثل ستار رفع من أمامه حين رأى هذا المعنى مكتوبًا بعبارات واضحة بينة.

كما تأثر (كنوت برنستروم) وفق الشهادات بقوله تعالى في سورة فصلت: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (فصلت: ٣٤)، وبغيرها من الآيات التي تدعو المسلمين إلى معاملة اليهود والنصارى معاملة حسنة، وتطلب منهم محاورتهم بهدوء وسكينة، وكذا الآيات التي تنهى المسلمين عن استعمال القسوة والشدة لدعوة الناس للإسلام. وبحكم أنَّ (كنوت) كان ديبلوماسيًّا من الدرجة الرفيعة، أعجب كثيرًا بهذا المنهج القويم الذي كان يتوافق وطريقة تفكيره، فازداد تشبثًا بالقرآن وتمسكًا بالإسلام.

أكد الوثائقي من خلال الشهادات أنَّ إيمان (كنوت برنستروم) بالقرآن نتج عنه طمأنينة قلبه وسكينة نفسه واستشعاره لنور القرآن، هذا النور الذي أحب أن يصل إلى قلب كل سويدي، كما ود أن تبلغ كلمة الله إلى بيت كل سويدي. ورغبة كنوت هذه لم تكن مجرد أمنية بل ترجمت منذ البداية إلى مشروع حقيقي وهادف لسد حاجة ماسة تخص إيصال البلاغ الإلهي لمسلمي السويد، فبعد تقاعده من العمل الدبلوماسي، واستقراره بالمغرب أخذ كنوت على عاتقه إنجاز ترجمة جديدة للقرآن إلى اللغة السويدية بهدف إعداد جيل جديد من مسلمي

السويد. فانكب على انجاز هذا العمل العظيم وتفرغ لدراسة القرآن الكريم وترجمة معانيه، وقد أخبرت (آن صوفي روك) في شهادتها وهي أستاذة الدراسات الدينية بجامعة سالمو، أنه كان يفكر بالقيام بهذه الترجمة سرًّا وهو مازال سفيرًا، فكان هذا العمل الجليل الذي أنكر فيه ذاته، إرثه الباقي الذي تركه نورًا لمن بعده من السويديين.

وحسب شهادة أحد الخبراء الذين تم استضافتهم في الوثائقي؛ كان قد سأله (كنوت قبل إقدامه على ترجمة القرآن إن كانت فكرته هذه فكرة جيدة؛ أنه لم يستحسن الفكرة ولم يجد جدوى لهذا المجهود لوجود ترجمات للقرآن باللغة السويدية، لكنه لما رأى ما قام به (كنوت) غير رأيه، لأنه رأى أن ما قصده لم يكن مجرد ترجمة وإنما كان تفسيرًا للمعاني.

فحسب الوثائقي كان قصد (كنوت) من إنجاز ترجمة القرآن إلى السويدية، أن يجعل البلاغ الإلهي ميسورًا للفهم وفي متناول كل من يستخدم اللغة السويدية، سواء كان من أصل سويدي، أو مهاجرًا قاطنًا بالسويد.

وقد أبرز الوثائقي مميزات ترجمة (كنوت برنستروم) للقرآن، من خلال الشهادات التي أكدت أنَّ (كنوت) لم يصف كتابه بأنه ترجمة للقرآن، وإنما اعتبرها ترجمة لمعاني القرآن، أو بتعبير أدق كما وصفتها إحدى الشهادات بأنها تمثل طيفًا واحدًا لعدة أطياف ممكنة، فاختار لها (كنوت) عنوان «رسالة القرآن»، وقد عقبت بعض الشهادات أن اختيار (كنوت) لهذا العنوان يدل على أنه لم يكن يسعى إلى ترجمة حرفية

للقرآن، وإنما كان يقصد بيان الرسالة التي تضمنتها الآية القرآنية، وبينت الشهادة خصوصية غيرها من الترجمات السويدية ووازنها مع غيرها من الترجمات، من خلال استعراض تاريخ ترجمات القرآن إلى السويدية، فبين الفيلم الوثائقي أنه كانت هناك ترجمة مبكرة لأجزاء من القرآن في القرن الثامن عشر، وأما أول ترجمة كاملة للقرآن باللغة السويدية فكانت في القرن التاسع عشر، من إعداد (تورمبرغ).

كما جاء في الوثائقي أنَّ بعد هاتين الترجمتين جاءت ترجمة الأستاذ جامعي (زيتيرستين)، في سنة (١٩١٧م)، والتي تعد من أفضل وأشهر ترجمات القرآن على مستوى اللغات الأوربية، إلا أنَّ لغة هذه الترجمة كانت عالية المستوى وقديمة الطراز وصعبة الفهم، كما كانت مقدمة ترجمته متحاملة على الإسلام والمسلمين، فلم تلق قبولًا لدى الناس خاصة المسلمين منهم.

وقد عبر أحد الضيوف السويديين في هذا الفيلم الوثائقي عن امتنان السويديين لـ(كنوت برنستروم) الذي أخذ على عاتقه القيام بترجمة كان المسلمون القاطنون في السويد بحاجة ماسة لها، وبين الضيف أنَّ أهمية هذه الترجمة ترجع بالخصوص إلى كونها جاءت في وقت استقبلت فيها السويد عدد كبير من المهاجرين قدموا من بلدان إسلامية غير عربية، هؤلاء المهاجرون لم يعرفوا القرآن بالعربية، ولم يتمكنوا من الحصول عليه بلغاتهم المحلية، لكنهم وجدوا أمامهم القرآن مترجمًا باللغة السويدية ترجمة تنقل روح معاني القرآن من دون تحامل أو إجحاف، فكانت هذه الترجمة ذات أهمية كبيرة لأناس أصولهم من يوغوسلافيا

وتركيا والبنغلادش، والهند والباكستان وإندونيسيا، وهذه البلاد على كل حال، لا يفهم الناس فيها معاني القرآن بالعربية.

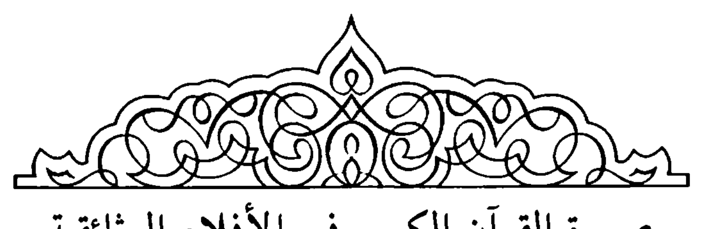
وقد ذكر الوثائقي من خلال الشهادات، أنَّ مقدمة ترجمة (كنوت) كانت مبسطة وعالية الجودة، كما نقلت الشهادات والصور، طريقة عرض (كنوت) المميزة لنصوص ترجمته، حيث قدم النص القرآني كما هو على يمين الصفحة، وجعل الترجمة مقابله، ثم وضع تحت الترجمة شرحه وتعليقاته فيما يقرب من نصف الصفحة، وهذا بالطبع كما جاء في الشهادة ذو فائدة علمية كبيرة بالنسبة للقارئ.

وقد بين أحد الضيوف الذين شاركوا مع (كنوت) في إعداد هذه الترجمة، أنَّ (كنوت) كان يجتهد كثيرًا ويستشير دائمًا أهل الاختصاص في انتقاء ترجماته، فيضع في اعتباره اختيار المفهوم المناسب للفظ القرآني بأسلوب سهل يناسب المستوى الفكري للمسلمين في السويد خاصة الشباب، وقدم هذا الضيف أمثلة لاجتهاد (كنوت) في تحديد المفاهيم من خلال ترجمته لكلمة «كتاب» ولمفهوم القوامة، حيث بينت الشهادة أنَّ (كنوت) لم يستعمل كلمة «boken» مقابل «كتاب» حتى لا يفهم القارئ أنه كانت هناك كتب في تلك الأيام، وإنما اختار كلمة تفيد معنى الوحي، على اعتبار أنَّ الله أنزل كلامه وحيًا، أما فيما يخص مفهوم القوامة؛ فقد وازن الضيف في الوثائقي بين ترجمة (زيتيرستين) الذي اختار للقوامة مفهوم سلطة الرجل على المرأة وعبر عن ذلك بأسلوب فظ؛ وبين ترجمة (كنوت) الذي انتقى معنى مسؤولية الرجل عن المرأة وشرح الآية بهذا المعنى، ورأى هذا الضيف أنَّ (كنوت) قد وفق في ترجمة هذين اللفظين، كما وفق في ترجمة غيرها من الآيات،

لاعتبار آخر هو أنه كان مسلمًا وذو منهج قويم وكفاءات عالية، الأمر الذي جعل ترجمته تلقى إقبالًا كبيرًا، وتحظى باستحسان الناس، وتغير منظورهم لترجمات القرآن وتفاعلهم مع نصوصه، وهنا يعلق أحد الضيوف من خلال تجارب واقعية عايشها في بلاد السويد، أنَّ تلاوة القرآن كانت تعني بالنسبة للجيل القديم من المهاجرين المسلمين؛ الغير الناطقين باللغة العربية؛ تلاوة نص مقدس لكن بلغة يجهلونها تحجبهم عن الوصول إلى فهم المعنى، ولكن مع وجود ترجمة (كنوت برنستروم)، أصبح اهتمام المؤمنين الشباب من مسلمي السويد تتجاوز مجرد تلاوة النص القرآني، إلى تلمس معانيه وإدراك مجمله ومفصله، وقد أكدت الشهادات أنَّ هذا الإنجاز العظيم الشأن الذي قام به (كنوت برنستروم) عمل مجدد للمسلمين القاطنين بالسويد، يفسح المجال للمسلمين المبتدئين ليتزودوا من فهم معنى الآيات القرآنية المترجمة، ومدخل مفيد للسويديين لفهم القرآن.

وفي الختام، هذا الفيلم الوثائقي «بين عالمين» (Between two worlds) الذي أخرجه أوبيديو سالازار (Ovidio Salazar)، وإن اعتبر أنه عرض لسيرة السفير السويدي كنوت برنستروم (Knut Berstrom)، إلا أنَّ القرآن الكريم حاضر بقوة وبصفة محورية من خلال الصور والشهادات، بل ويشغل الحيز الأوفر من موضوع الوثائقي.

وتظل الحاجة ماسة إلى إنجاز أفلام وثائقية تعنى بصفة مباشرة بالقرآن الكريم وبعلومه.



صورة القرآن الكريم في الأفلام الوثائقية

عن الفنانين المتحولين إلى الإسلام

فيلم (آيات فنية) أنموذجًا

● أ/ أحمد الصمدي ●

باحث وكاتب/ المغرب

أولًا: مقدمة:

تعد العالمية عنوانًا بارزًا ومميزًا لرسالة القرآن الخالدة، فهو يتقدم إلى جميع الناس في العالم، وعبر التاريخ، بروح المحبة والرحمة والخير، وبمنطق الإقناع واستثارة التأمل والتفكير.

ويلاحظ الدارس تزايد الإقبال على اعتناق الإسلام والتحول إليه في العالم المعاصر، ويشمل ذلك فئات مختلفة تضم علماء ومفكرين ومثقفين وفنانين ورياضيين ودبلوماسيين وغيرهم.

وبالتأمل في سيرة هؤلاء «المتحولين إلى الإسلام»[1] نلاحظ أنَّ ما

---

(١) «المتحولون إلى الإسلام» مصطلح يفضله كثير من الباحثين والمهتمين لتسمية المعتنقين للإسلام حديثًا؛ لأنه أدل على حالة الانتقال من دين آخر إلى الإسلام.

يشدهم إلى الإسلام أكثر، ويثير اهتمامهم ويهز كيانهم، ويعيد ترتيب أولوياتهم ومعنى حياتهم هو القرآن الكريم، بروحه الربانية السامية، وخطابه الشفاف البليغ، وتأثيره العميق، الذي لا يمكن أن يوصف بالكلمات حسب ما عبر عنه كثير منهم.

وقد غدت حياة المتحولين إلى الإسلام مادة مهمة للدراسة، خاصة وأنَّ بعضهم دوّن مذكراته، أو ألف كتبًا ترصد التغيير الكبير الذي حدث في حياته(١).

وتعد الأفلام الوثائقية بما هي وسيلة فنية لتسجيل الوقائع وتقديمها عبر الصورة، أداةً عصرية فعالة لرصد حياة المتحولين إلى الإسلام، وتقديمها لعموم الجمهور العربي الإسلامي، بكل فئاته العمرية، لما لذلك من نتائج تربوية وثقافية فعالة، كما أنَّ تقديمها لجمهور غير المسلمين يحقق نتائج دعوية وحضارية وإنسانية ذات أبعاد مهمة جدًا.

غير أنَّ الأفلام الوثائقية المنجزة عن هؤلاء المتحولين إلى الإسلام ليست بالعدد الكافي، سواء في الفضاء الإعلامي العربي الإسلامي أو في غيره، هذا مع أنَّ كثيرًا منهم شخصيات ذات حضور إنساني وازن، وطراز ثقافي وعلمي متميز، وهذا ما يمكن عَدُّه منطقة فراغ أخرى تضاف إلى مناطق الفراغ الكثيرة في سلم أولوياتنا في الحياة الثقافية الإسلامية المعاصرة، فما زلنا في حاجة إلى هذا النوع من الأفلام الوثائقية (وكذلك الأفلام الدرامية)؛ لأنها تبرز قيمة التحول إلى

---

(١) انظر مثلًا: حياة الثائر الأمريكي المسلم مالكوم إكس، تأليف: إليكس هالي، ترجمة: خالد عبدالله.

الإسلام في العصر الحديث، وتدعو إلى التفكير العميق فيه وفي قضاياه عبر المقارنة، وتبرز خصائصه وأبعاده الشاملة، وتجدد النظر إلى القرآن الكريم، وهو محور التحول من زوايا متعددة قد لا يكون الدارسون قد التفتوا إليها من قبل، وفي عصر تشغل فيه الصورة حيزًا واسعًا[١]، وتمتلك تأثيرًا جماهيريًا كبيرًا، لا يمكن التغاضي عن مثل هذه الأعمال الفنية بكل إمكاناتها التوثيقية والحوارية والجمالية.

ثانيًا: صورة القرآن في الفيلم الوثائقي:

إنَّ الحديث عن صورة القرآن الكريم في الفيلم الوثائقي يقتضي التركيز على تمثل مبدع الفيلم الوثائقي له، ومدى قدرته على إبراز العناصر التي اختار التركيز عليها، وبما أنَّ الفيلم الوثائقي هو في طبيعته تسجيل وتوثيق، فإنَّ صورة القرآن فيه تتصل بالموضوع المتناوَل وبدرجة تركيزه وزوايا النظر إليه، وفي الأفلام الوثائقية التي ترصد حياة شخصية ما أو سيرتها وتجربتها الخاصة التي تتصل بالقرآن الكريم، فإنَّ صورة القرآن الكريم تتشكل من خلال تلك الشخصية، وما يركز عليه العمل الوثائقي في مسارها من أبعاد إنسانية وثقافية متداخلة، تتفاعل مع التأثير العجيب للقرآن الكريم.

«إنَّ الفيلم الوثائقي في ثقافة الفن والإبداع هو: (عرض الشيء كما هو)، مما يعني التخلق بأخلاق النقل المصدَّق، حتى يبقى للخصوصية الوثائقية مجالها... وهذا ينعكس على الصورة وثقافتها انعكاسًا إيجابيًا

---

(١) انظر في أهمية الصورة: عصر الصورة: السلبيات والإيجابيات، د. شاكر عبدالحميد، سلسلة عالم المعرفة، عدد: ٣١١، يناير سنة (٢٠٠٥م).

يميزها عن غيرها من الصور الخيالية»[١]، وبناء على ذلك فإنَّ صورة القرآن حسب هذا المنظور الفني تتشكل وفقًا لمسار الشخصية موضوع الفيلم الوثائقي، وتعبيراتها اللفظية، ودلالة الصور والوثائق والشهادات، وتعليقات الضيوف، إنَّ هذا النوع من الأفلام الوثائقية التي ترصد حياة شخصية ما يختلف عن تلك التي تتحدث عن القرآن مباشرة، وتتخذه موضوعها الوحيد أو الرئيس، وفي تقديري أنَّ هذا النوع من الأفلام يقدم خدمة كبيرة للقرآن الكريم (تضاف إلى باقي الجهود)؛ لأنه يبين تفاعل نماذج بشرية مختلفة معه، وحياتهم به وفي ظلاله، ويقدم ذلك كله بجرعات فنية مخفَّفة، تمكن المشاهد المعاصر من استيعابها بالتدريج، مهما كان مستواه الثقافي، بل وانتماؤه الحضاري.

ثالثًا: صورة القرآن في فيلم «آيات فنية»:

في هذا المقال محاولة لدراسة صورة القرآن الكريم في الفيلم الوثائقي: «آيات فنية»، للمخرج المغربي حكيم قِبابي، الذي أنجزه عن الفنان التشكيلي الإيطالي كرم سيباستيان كناريللا، وسيركز المقال على رصد تفاعل الفنان موضوع الفيلم مع القرآن، وقراءة قصة تحوله إلى صفه، وكيف تأثرت حياته بالقرآن، وكيف عكف سنين طويلة على تدبره، بعد قراءة ترجمة لمعانيه.

١ - فيلم: آيات فنية:

فيلم وثائقي من إخراج المخرج المغربي حكيم قبابي، عن حياة

---

(١) مقدمة في صناعة الفيلم الوثائقي، د. عبدالله أبوعوض (ص: ٣٣).

الرسام والفنان التشكيلي الإيطالي كرم سبستيان كناريللا الذي تحول إلى الإسلام سنة ١٩٩٣م، بعد رحلة طويلة من التأمل، وقرر الاستقرار بالعاصمة المغربية الرباط، وقد قامت بإنتاج الفيلم المؤسسة المغربية للفن والإبداع (إيما كونسيبت) سنة ٢٠١٣ م، تم تصوير الفيلم في سيسيليا والرباط، وهو يتضمن بعض المشاهد من إعادة تمثيل الأحداث القديمة من طفولة كرم وشبابه، يتحدث كرم باللغة الإيطالية في الغالب، كما يشارك في الحوار ضيوف متميزون: مفكرون وفنانون ودبلوماسيون، من المغرب ومصر وسوريا وإيطاليا وفرنسا، إضافة إلى شقيقة كرم وأصدقائه، ويتحدث كل واحد بلغته الأصلية.

٢ ـ محطات في حياة كرم سيباستيان كاناريللا من خلال الفيلم:

أ ـ مسيرة فنية بلا اتجاه

ولد كرم سيبستيان كناريللا في ٢٥ دجنبر ١٩٤٢ م، في مدينة سيسيليا بجزيرة صقلية، وكان والده جنديًا في الجيش الإيطالي، نشأ كرم منذ صغره محبًا للوحدة والتأمل وقراءة الأشعار، وبدأ كتابة الشعر باللغتين الإيطالية والسيسيلية وهو بعدُ طفل صغير، وفي الثامنة عشرة من عمره انتقل إلى مدينة ميلانو لدراسة الفنون التشكيلية، وهناك بدأ تجربته الإبداعية، وعمّقها فنيًا وتقنيًا، وفي عام ١٩٧٣ أقام أول معرض خاص به، غير أنه كما يقول لم يكن مقتنعًا بحياته ومساره، كان يبحث عن «حياة مختلفة وعن مصدر إلهام جديد»، ولذلك قرر السفر، فاتجه أولًا إلى زوريخ، ثم إلى باريس سنة ١٩٧٤ التي التقى فيها بفنانين

أحبوا أعماله الفنية بسرعة، وطلبوا منه إحضار لوحاته، فنظم هناك عدة معارض، وطور أسلوبه الفني.

لقد نجح كرم سيبستيان في الفترة ما بين ١٩٧٣ و١٩٨٠ في تجريب عدة أساليب فنية وتنظيم معارض مهمة في أوروبا، غير أنَّ شيئًا ما كان ينقصه لقد كان يبحث في قرارة نفسه عن شيء يميزه ويحقق إنسانيته، لكنه لم يجده في شمال البحر المتوسط كله.

ب ـ اللقاء الغريب:

في الفترة التي كان فيها كرم يجدّ في العمل الفني، ويمعن في البحث عن الشيء الذي ينقصه، كانت الهجرة العربية إلى أوروبا تتزايد، وفي يوم من الأيام أراد كرم طلاء جدران منزله الذي انتقل إليه حديثًا، فاستدعى صباغًا شابًا تبيّن فيما بعد أنه مصري، وطيلة أيام العمل كان الصباغ المصري يستمع إلى شريط موسيقي لأم كلثوم، يقول كرم: «كنت أحس أنَّ هذه الموسيقى أعرفها، وأنها قريبة مني، وكنت أسأل نفسي أين سمعتها؟ والصباغ المصري كان يضع نفس الأغنية طوال اليوم، في المساء سألته إن كان لديه أسطوانات أخرى، في الغد أحضر لي أسطوانات أخرى فبدأت أسمعها حين أكون وحدي، فاكتشفت أنني أعرف هذه الموسيقى، وأنها ليست غريبة عني، بدأت أبحث في ذاكرتي من أين أعرفها؟ فتذكرت طفولتي في سيسيليا وقربي من تونس».

ج ـ اللقاء بالقرآن والتحول الحاسم:

كان الشاب المصري يتحاور مع سيباستيان بتلقائية، ويحاول

بمستواه المتواضع في اللغة الإيطالية أن يشرح أمورًا كثيرة عن الثقافة العربية الإسلامية، وكان يفرح كثيرًا كلما تواصل بنجاح معه، وصارا مع مرور الوقت صديقين حميمين.

وفي يوم ليس كالأيام وصل كرم إلى محطة حاسمة يقول: «بدأت أقرأ القرآن (يقصد ترجمة معاني القرآن) باللغة الإيطالية، كان الصباغ المصري يشرح لي بعض الأمور، ولكن كنت أستعين بالكتب من أجل شرح القرآن،لم أكن أفهم الإسلام جيدًا، كنت فقط أبحث عن الفرق بين الإسلام والمسيحية واليهودية».

ومن أجل فهم الثقافة العربية وصلتها بالقرآن سافر كرم إلى مصر، كان يريد أن يعرف عن قرب الوسط الذي تربى فيه الصباغ المصري المسلم، وهناك سيعلن إسلامه في الجامع الأزهر لتتغير حياته إلى الأبد، يقول: «عدت إلى إيطاليا وبدأت في الرسومات الأولى، في البداية رسمت ثلاثين لوحةً تقريبًا، وفي نفس الوقت كنت أحاول فهم الإسلام أكثر ومقارنته بالديانات الأخرى... وقررت أن أتعامل بشكل جدي مع القرآن، فبدأت آخذ دروسًا عند أستاذ مصري يشرح لي معاني القرآن، بعد ذلك نقلت القرآن الكريم كله بيدي، وكنت أستعين بشخص ليقول لي هل ما أكتبه صحيح أم لا؛ لأني لا أعرف العربية نهائيًا، وفي القرآن أبسط تغيير يؤدي إلى تغيير في المعنى».

٣ ـ مكونات صورة القرآن في الفيلم:

أ ـ القرآن تصحيح لمسار الإنسان مع تجديد طاقاته:

يرى نقاد الفن أنَّ «الفنان يأخذ من نفسه ومن حوله ومن الكون

معاني الأشياء فيستوعبها، وبعد اختيارها يخرجها للجمهور»[١]، وهذا ما يجعل للفن معنى وجدوى، ويجعل المتلقين يتفاعلون معه بأشكال مختلفة من التلقي، وقد كانت تجارب كرم السابقة تحاول تمثل هذا المفهوم، وتسعى إلى تجسيده عبر البحث المستمر ومحاولة تغيير الأساليب، غير أنَّ تفاعل كرم مع القرآن الكريم ومعانيه غيّر رؤيته للحياة، ذلك أنَّ «كتاب الله عز وجل فيه خواص وخصوصيات تجعله بإذن الله حين يستقر في قلب الكائن البشري يجعل منه إنسانًا غير عادي، يفجر طاقاته تفجيرًا ليكون خيرًا وبركة على نفسه وعلى الناس من حوله، بل على البشرية جمعاء»[٢].

ولقد تغيرت نظرة كرم إلى الحياة، ومن ثم إلى مفهوم الفن ووظيفته، وهذا ما دفعه إلى أن يحصر مادة فنه في المرحلة الجديدة في آيات القرآن ودلالاتها وآثارها في نفسه، يدل على ذلك العدد الهائل من اللوحات التي أبدعها كرم بعد إسلامه، والحيوية البارزة التي كانت تغمره وهو ينجزها، وهو نفسه يصرح قائلًا: «لقد كلفني رسم هذه اللوحات أوقاتًا طويلة من العمل الجاد والمستمر، لدرجة أنني كنت أخاف أن أمرض أو أن أموت قبل أن أرسم كل اللوحات المستوحاة من القرآن، لم أكن أفكر في المصاريف التي كانت تلزمني من أجل هذا العمل الضخم، أو الجهد والوقت الذي سيتطلبه مني، كل ما كنت أفكر فيه هو إنهاء هذا العمل من أجل نفسي من أجل الآخرين، ومن

---

(١) الإسلام يحرر الفن من القيد الوثني والأسر الكهنوتي، د. مصطفى عبده (ص: ٧٢).
(٢) شروط الانتفاع بالقرآن الكريم، د. الشاهد البوشيخي (ص: ١٢، ١٣).

أجل الثقافة وبالخصوص إيصال رسالة إلى الذين لا يعلمون شيئًا عن القرآن».

ب ـ القرآن عالم لا نهائي من المعاني والموضوعات:

«إنَّ مكابدة النص القرآني مكابدة تنطوي على لذة غير محدودة، ولعل تأمله مرة بعد مرة وعد دائم بانفتاح على أفق أوسع، إنه النص الذي يهب العقل حضوره وبصيرته، ويمد جسره العالي بين اللغة والحقيقة»[١].

وهذا ما توصل كرم إلى إدراكه بعد قراءاته المتكررة للقرآن الكريم، لوحده أو استعانة ببعض العلماء، وكلما قرأ أكثر انفتحت أمامه مساحات جديدة، وبدأت لوحاته تتزايد وتتعمق، وتدخل مكونات جديدة، لذلك نراه يجتهد من أجل إيصال المعاني الجديدة التي توصل إلى إدراكها إلى الآخرين، «وخاصة الأوروبيين الذين لا يطلعون على القرآن، وحتى حين يقرؤونه لا يفهمون جيدًا معانيه، فالقرآن يحتوي على أشياء غيبية لا يمكن لأي قارئ أن يفهمها بسهولة» كما يقول كرم، ونحن محتاجون في عصرنا الحديث إلى طرق جديدة لتقديم القرآن الكريم إلى العالمين، فهو حقًّا «كتاب كوني معادل للوجود وحركته، نعمل على إعادة اكتشافه وتلاوته «حق التلاوة» وقراءته بوعي قادر على استيعاب شروط الوعي العالمي المعاصر... لنثبت لعالم اليوم أنَّ القرآن المجيد المكنون الكريم قادر على مخاطبة عالم اليوم في أعلى درجات

---

(١) النص القرآني من الجملة إلى العالم، د. وليد منير (ص: ١٥).

تقدمه، وفي مستوى سقفه المعرفي، وقادر على الأخذ بيد الإنسان المعاصر لإخراجه من أزماته، وتجاوز مشكلاته»[١].

ت ـ القرآن عالم من الصور الحية عن الإنسان والكون والغيب:

من المعلوم «أنَّ الفن التشكيلي بحكم مواده الثابتة هو ثابت في المكان، فكان لا بد من إيجاد الحركة، والمراد هنا الحركة الداخلية للشكل، بدون أن يتأثر الشكل نفسه بهذه الحركة»[٢]، ومعنى هذا أنَّ الفنان يبذل جهدًا كبيرًا في محاولة إضفاء الحركية على موضوعاته بتقنيات من خارج الموضوع، قد تنجح في محاكاته وقد لا تنجح.

إنَّ الفنان التشكيلي كرم سيبستيان بمعايشته للقرآن الكريم أصبح أمام مشاهد تفيض بالحركية والحيوية، ما دام التصوير هو الأسلوب القرآني البارز[٣]، فالقرآن الكريم ينبوع يفيض بالصور والأحاسيس والألوان، وليست المعاني فيه مجردات اعتبارية لا يدركها إلا العقل، وإنما هي صورة حية تمر بخيال القارئ والسامع ويلمسها إحساسه، وتكاد تراها عينه[٤]، وهكذا اغتنت لوحاته تلقائيًا بحركية ذات أبعاد واسعة ودلالات عميقة، لقد صاغ القرآن الكريم شخصية كرم صياغة جديدة، وفتح رؤاه على عوالم روحية شاسعة تمتد في اتجاهات

---

(١) خصائص لسان القرآن، د. طه جابر العلواني، ضمن أعمال الندوة الدولية: مناهج الاستمداد من الوحي (ص: ٢٧).
(٢) الإسلام يحرر الفن من القيد الوثني والأسر الكهنوتي، مرجع سابق (ص: ٧٧).
(٣) انظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب (ص: ٣٦ وما بعدها).
(٤) انظر: من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي (ص: ١٦٩)، وجماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، د. صالح ملا عزيز (ص: ٥٢، ٥٣).

مترامية، فمن أبعد لحظة في التاريخ، إلى أعلى نقطة في السماء، وإلى أدق حقيقة في النفس الإنسانية، ثم إلى أوسع معنى من معاني الغيب، بل إلى صور الحياة الخالدة في الآخرة، وهكذا أصبح لفنه معنى حقيقي، يحس به هو نفسه، كما يحس به المتلقي، ويلمس صدقه في كل لوحة، ذلك أنَّ الفن الصادق هو الذي يأتي تعبيرًا عن العقيدة (الحق)؛ لأن العمل الصادق نفسه هو ما جاء نتيجة صادقة لتصور الفنان صاحب السلوك الذي ينبثق من ارتقائه في تمثل معاني عقيدته[١]، وقد استطاع كرم أن ينجز لوحات متنوعة إلى درجة كبيرة، لكنها تنتظم حول موضوع واحد، وتفيض بروح واحدة، يلمسها المتلقي في نوعية الألوان ودرجاتها، وفي الخلفيات العميقة التي يحرص عليها، وتعتمد فكرته على إثبات نص الآية في مساحة ما من اللوحة، ووضع العمل التشكيلي قبالتها في تعبيرية رائعة.

ث ـ القرآن مصدر إلهام فني لا ينضب:

لقد استكشف كرم عوالم القرآن العظيمة الرائعة، فحصل على مصدر إلهام جديد ودائم، لا تنتهي موضوعاته وصوره ومعانيه، ولهذا انطلق في إبداعه انطلاقة كمية ونوعية فريدة، صحيح أنه كان يتوقف في بعض اللحظات ليتساءل عن حدود إبداعه وعن المحاذير التي يجب ألا يقع فيها، فهو يدرك أنه يتعامل مع كتاب الله الذي هو وحي مقدس، ولذلك كان يحاول أن يبني إبداعه على أسس علمية شرعية يقول: «عندما قرأت عن الإسراء وعن قصة الإسراء والمعراج في التفاسير

---

(١) انظر: الإسلام يحرر الفن من القيد الوثني والأسر الكهنوتي، مرجع سابق (ص: ٨٤).

بدأت أتخيل البراق، وأتساءل هل يحق لي أن أرسمه؟». وحدث الأمر نفسه مع قصص الأنبياء. ومع كل هذه الأسئلة والمحاذير، فقد أحس كرم بحرية كبيرة؛ لقد وجد مصدر الإلهام الذي ظل يبحث عنه طوال تلك السنين. وإذا كانت بعض تدخلات الضيوف المشاركين في الفيلم قد تناولت بالمناقشة قضية استلهام القرآن الكريم في الفن التشكيلي، واختلفت الآراء بشأن التفاصيل، فإنَّ الذي يهمنا في هذا المستوى من الدراسة هو الفكرة الأصلية نفسها، إنَّ القرآن حقًّا مصدر لكل من أراد أن يبدع إذا عرف طريق الدخول، وقد سعى بعض الباحثين والفنانين إلى البحث في القرآن عن أسس فنية تنتمي إلى مجال تخصصهم وإبداعهم، فوجدوا أنَّ القرآن الكريم حسب اجتهادهم يوفر نمطًا راقيًا من «اللغة الفنية الصالحة للمسرح والسينما والتلفاز، وهو نمط النص المرئي البصري بكل مواصفاته المتحركة المنسجمة مع فيزياء الحياة أي السيناريو...»[1]. وهذا مسعى يستحق البحث والتحقيق والتحرير، ولا ينبغي التغاضي عنه في مجالنا الثقافي والفني اليوم.

ج ـ القرآن دعوة إلى التعايش الإنساني:

لقد فهم كرم منذ بداية تعامله مع القرآن أنه دعوة إلى توحيد الناس، وأنَّ أصل الدين واحد، وإن اختلف الناس بابتعادهم عن الأصل، وقد حاول أن يوصل هذه الفكرة إلى بني جنسه من الأوروبيين ولكنهم لم يتمكنوا من استيعابها «لقد أدركت أنَّ الناس لا يعرفون شيئًا عن

---

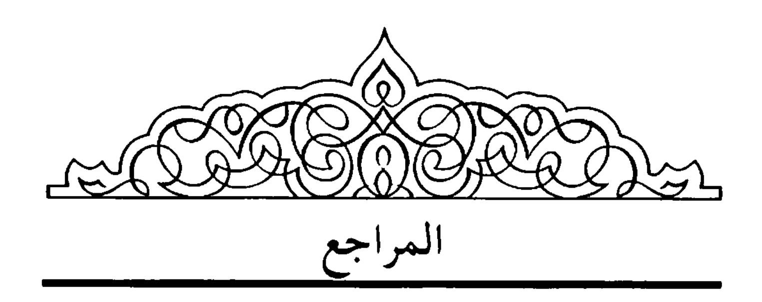
(١) فن السيناريو في قصص القرآن: حوار فكري وحضاري جديد، د. جمال شاكر البدري (ص: ٩).

الإسلام وعن الدين عمومًا»، هكذا يعبر كرم بأسف، لكنه يمضي ليرسم لوحته الرائعة عن قيمة التسامح والتعايش بين الناس انطلاقًا من الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات: ١٣) إنها دعوة إلى الانضمام تحت لواء واحد يكون فيه معيار التنافس هو التقوى، وليس أي معيار عرقي أو جنسي أو اقتصادي أو غيره[١].

خاتمة:

لقد تجلت في الفيلم الوثائقي «آيات فنية» صورة مشرقة أخرى من صور القرآن العظيم، وهي صورة قلما نجد التركيز عليها سواء في الكتابات والتأليفات والمحاضرات، أم في الأفلام الوثائقية، وهذا مكسب جديد وثمين ينبغي دعم حضوره وتشجيعه للمضي به إلى أبعد غاياته، وهذا ما نأمل أن تنهض به مبادرات علمية وأكاديمية مثل هذه المبادرة الكريمة، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾.

(١) للتوسع في فكرة سماحة الإسلام ودعوته للتعايش، ينظر: سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين، د. عبدالله بن إبراهيم اللحيدان (ص: ١٥ وما بعدها).



المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الإسلام يحرر الفن من القيد الوثني والأسر الكهنوتي، د. مصطفى عبده، مكتبة مدبولي ط٢، القاهرة، ١٩٩٩م.

٣ ـ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٨م.

٤ ـ جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني، د. صالح ملا عزيز، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، دمشق، ٢٠١٠م.

٥ ـ حياة الثائر الأمريكي المسلم مالكولم إكس، تأليف: إليكس هالي، ترجمة: خالد عبدالله، دار طيبة للطباعة ـ الجيزة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٩م.

٦ ـ خصائص لسان القرآن، د. طه جابر العلواني، ضمن أعمال الندوة الدولية: مناهج الاستمداد من الوحي، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط١، الرباط، ٢٠٠٨م.

٧ ـ سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين، د. عبدالله بن إبراهيم بن علي اللحيدان، سلسلة موقف الإسلام من الإرهاب، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، الرياض، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٨ ـ شروط الانتفاع بالقرآن الكريم، د. الشاهد البوشيخي، السلسلة القرآنية ٣، مطبعة أنفو برانت، ط١، فاس، ٢٠٠٨م.

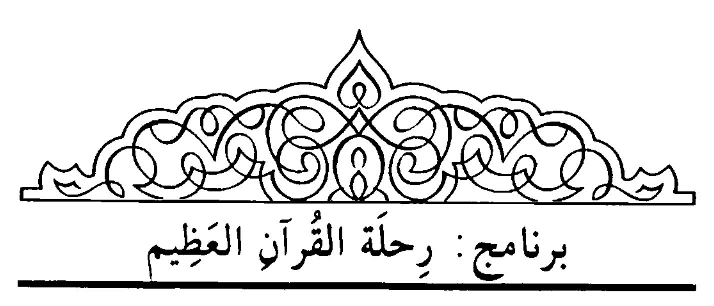
٩ ـ عصر الصورة: السلبيات والإيجابيات، د. شاكر عبدالحميد، سلسلة عالم المعرفة، العدد: ٣١١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير ٢٠٠٥م.

١٠ ـ فن السيناريو في قصص القرآن: حوار فكري وحضاري جديد، د. جمال شاكر البدري، دار صفحات للدراسات والنشر، ط١، دمشق ٢٠٠٧م.

١١ ـ مقدمة في صناعة الفيلم الوثائقي، د. عبدالله أبو عوض، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الإعلامية والأفلام الوثائقية، مطبعة البيضاوي، ط١، الرباط، ٢٠١٣م.

١٢ ـ من روائع القرآن: تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.

١٣ ـ النص القرآني: من الجملة إلى العالم، د. وليد منير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية، ١٤، ط١، القاهرة، ١٩٩٧م.



برنامج: رِحلَة القُرآنِ العَظِيم

تجربة ذاتية

● أ/ أحمد المفتي ●

كاتب وباحث/ سوريا

برنامج تلفزيوني وثائقي يرصد تاريخ تدوين القرآن العظيم منذ أن أطلّ خبر السّماء على غار حراء، واصطفى الله سبحانه وتعالى من خلقه محمد بن عبدالله القرشيّ العربي صلى الله عليه وسلم ليكون الرحمة المهداة ورسوله إلى العالمين.. فأنذر وكبّر، وطهّر وهجر، ولم يمنن يستكثر، وثبت وصبر، وفتح الله له بالفتح المبين، فأكمل الدّين وأتمّ النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا، والقرآن كتابًا ودستورًا.

منذ ذلك اليوم الذي أنزلَ الله فيه رحمته على عباده.. وإلى اليوم، وعباد الرحّمن يخطّون هذا البيان المعجز المجيد، ويرتّلونه آناء الليل وأطراف النّهار، ويشرّعون منه الدساتير والأحكام مع مرور الأيّام والأزمان، إنّه القرآن العظيم، خطاب وبيان الله لعباده، وإعجازه للأنس والجانّ، بِرَوْقِ بلاغته، وبواطن درّه وجمانه، فمرّت القرون دون أن

تمسّه يد التحريف والتزوير بالرّغم مما حاوله المضلِّلون، وظل الكتاب الأمين الثّقة الّذي يُركن إليه في صدق بيانِ السّماء لأهل الأرض.

إنه القرآن الكريم العظيم المجيد الذي انقضى على نزوله أربعة عشر قرنًا ونيف ومازلنا نقرؤه كما قرأه نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم تلقاه من الأمين جبريل وحيًا وما في ذلك من شكٍّ أو ريب.

يتألّف البرنامج من ستين حلقة. مدة الحلقة زمنيًا (٢٠) عشرون دقيقة.

وقد عرض على أكثر القنوات الفضائية والأرضيّة في العالم العربي وأعيد أكثر من مرّة..

وَمَضَات من بَرنامج رحلة القرآن العظيم:

تناول علماؤنا الحديث عبر القرون عن القرآن العظيم، وألّفوا كتبًا كثيرة في تاريخه منذ بدء الوحي، وتنزّل الآياتِ الأولى على النبي محّمد صلّى الله عليه وسلّم وحتّى مماته وانتقاله إلى الرّفيق الأعلى..

ولم تكن كتب التّاريخ هذه، ومن ثمّ علوم القرآن إلاّ منهج بحث ورصد، سرد فيه العلماء الصّورة المثلى والمعنوية للقرآن العظيم، وقليل منهم من تعرّض بعد عدة قرون للجانب الجمالي من حيث جمال المبنى لهذا الكتاب العظيم الّذي تفرد به المسلمون عن باقي أصحاب الديانات بدقّة ضبطه، والحفاظ على مشافهته، ومن ثم كتابته في أساليب وأفانين شتى.

لقد عرض الجزء الأوّل من البرنامج مجمل الجوانب الفنية

والحضارية التي قصّر أكثر علمائنا في رصدها وتسجيلها والبحث عنها، كما تناول تاريخ تدوين القرآن من جهة الوثائق، فعرض الوثيقة وحاكاها، واستنبط منها تطوّر رموز اللغة العربية، وتكامل نموّها، وليسوا بنصيب ضئيل في دراسة هذا الكتاب السّماوي العظيم.

لقد تناولت في البرنامج مواضيع عدّة فخصصت حلقات للحديث عن الرّق وتجارته وصناعته ثم عن الورق الذي أخذه المسلمون عن الصينيين بعد انتصارهم في فرغانة، وعن التجليد ورحلات المصحف الخشبية المطعّمة بالعاج والصّدف والفضّة، وأغلفة المصاحف المزينة بالجواهر، وأفردت حلقات للزخارف النباتية التي تحمل معنى الرحمة، والهندسية التي ترمز إلى الخوف وعن الألوان ومعانيها والذهب ومعناه وحللت بواطن المعاني لكل مايشمل رموز الأشكال في المصاحف التي تمّ عملها في المشرق والمغرب وعرضت نماذج المصاحف من القرن الهجري الأول وحتى يومنا هذا وتتبعت المصاحف في متاحف العالم من طشقند حتّى المتروبوليتان. وحلّلت المصاحف المنسوبة لسيّدنا عثمان (رضي الله عنه)، ولسيّدنا عليّ (رضي الله عنه)، ولسيّدنا الحسن والحسين رضي الله عنهما، وللمصاحف المنسوبة لبعض الصحابة، وتعرّضت لمصحف نادر فيه بعض الرّسوم التي تمثل الجنة والجحيم في بولونيا، إلى غير ذلك من المواضيع الفنية التي مرّ بها كتاب الله عبر الأزمان، ثم سردت حياة النساخ والخطاطين المجوّدين لكتابة المصحف والمزخرفين والمجلدين من مشرقيين ومغربيين، وخصائص كلّ منهما..

لقد كان الجزء الأول من رحلة القرآن العظيم (٣٠) ثلاثون حلقة،

يتناول المصحف المخطوط، وفي حلقاته الأخيرة تناول قصة الطباعة والمصاحف المطبوعة وخاصة مصحف قازان الذي كان أوّل مصحف مطبوع سنة (١٨٢٣م) ومصحف البوسنة والهرسك وغير ذلك.

أما الجزء الثاني من رحلة القرآن العظيم (٣٠) ثلاثون حلقة، فقد تناول الحديث بتوسع قليلًا عن القبائل والأديان في الجزيرة العربية قبل البعثة، كما تناول لغة القرآن (العربية) والكتابة وخصائص الرسم ومنشأ الكتابة والأحرف السبعة والقراءات وأسباب النزول، والقرآن زمن الامويين وأشهر قراء بلاد الشام (أبو الدرداء مثلًا) وصفة المصاحف زمن الأمويين، وفضائل القرآن العظيم، والقصة في القرآن العظيم ودور القرآن العظيم في المجتمع، وولادة العلوم والفنون في أحضان القرآن العظيم والمصاحف الأندلسية والمصاحف زمن العثمانيين وظاهرة الوحي والقرآن والتفسير وغير ذلك من المواضيع..

إنَّ إنتاج عمل مثل هذا العمل يحتاج إلى فريق عمل ومؤسسات وهذا ما نوّهت عنه الصّحف التي كتبت عنه، ولكني بتوفيق من الله سبحانه وتعالى عملت جاهدًا منذ سنة سبع وسبعين وتسعمئة وألف ميلادية، سبع وتسعين وثلاثمئة وألف هجرية، أجمع كلّ ماكنت قد جمعته منذ سنة خمس وستين ميلادية، وقمت بزيارات للمتاحف والاطلاع والتصوير والقراءة وجمع المصادر فأمضيت ثلاثين سنة إلى أن استوى العمل وخططت السيناريو، وأُنتج العمل.

أَنَا والعمل:

كانت الغاية التي أسعى إليها هي تقديم الجديد وبصورة مشرقة،

وأن أسدّ النقص الذي لم يقدّم على شاشاتنا العربية خدمة لكتاب الله المجيد، وأن يتميّز بالصّورة والوثيقة وعنصر التشويق، وكان الحلم بعد هذا العناء والجمع وإنفاق الغالي والرّخيص وسلخ ربع قرن من العمر أن يكون العمل (ديكودراما) ويتمّ التصوير في أصقاع العالم الإسلامي الذي تمّ فيه خط المصحف وتجليده وتذهيبه منطلقًا من مكّة المكرّمة، والمدينة المنوّرة، إلى الكوفة والبصرة مطوّفًا حتى استانبول إلاّ أنه ماكل مايتمنى المرء يدركه.

وبدأت أبحث عن منتج أو مموّل يدفع العمل إلى البعث والظهور بعد إنفاق ما أنفقت، وكنت أحسب ذلك يسيرًا، غير أنني صدمت وعييت وضاقت بي السبل فآثرت السكينة.

وفي غمرة اليأس التي اجتاحتني، جاءني صديق رأى في ما أرى من جدة البحث والمعلومة، فعرض علي إخراج العمل معتمدين على التعليق والوثيقة وأعمال (الغرافيك) فحسب كي لا يكون العمل مكلفًا، وأنّ عنده من يمول العمل هذا فنزلت عند رغبته من أجل أن يخرج العمل للنّور مقابل مبلغ زهيد، والغاية هي خدمة كتاب الله دون النظر إلى المادّة المالية، وكان معي في هذه الغاية.

وتم إخراج العمل على يد صديقي المهندس فراس قنّوت وإنتاج شركة عرب للإنتاج والتوزيع الفني، وظهر العمل على الشاشة وكان جديدًا في طرحه لم يُسبق من قبل، ولاقى على ضعف إمكاناته الإخراجية (بسبب التمويل) إقبالًا منقطع النظير من قبل الخاصة والعامة، إذ رأوا فيه شيئًا جديدًا مادّةً وصورة حتى عند مشايخ القراء،

وكتبت عنه الصحافة وقرّظه كثيرون من أهل الاختصاص وتم توزيعه على عدد كبير من القنوات التلفزيونية في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

إنَّ طرح صورة القرآن العظيم وعلومه في الفيلم الوثائقي ضرورة في عصر الصّورة لأنَّ تقديم المعلومة من خلال الصّورة أرسخ على الثبات في ذهن المشاهد المتلقّي وأمتع من أيّ أسلوب آخر، كما أنَّ تقديم الوثائق القرآنية المصحفية هي أبلغ من أي أسلوب آخر لدحض افتراءات المفترين في هذا الزّمن الذي كثر فيه الضّالّون المضلّون المشككون بصدقية الكتاب الإلهي المقدّس.

إنَّ خدمة كتاب الله (عز وجل) واجب على كلّ مسلم فرد أو حكومة أو مؤسسة ونحن ننفق الملايين على مسلسلات لا تقدم المفيد ولا تسمن ولا تغني من جوع وندع الأمور العظام الّتي حملت إلينا السعادة وألّفت هويّتنا الإسلاميّة التي نحب أن نقدّمها بأبهى صورة وأجمل شكل.

إنَّ برنامجًا يتناول رحلة القرآن العظيم يحتاج إلى تقنيّة عالية ورؤية فنيّة إسلاميّة تبرز القيم الجماليّة التي حملها القرآن العظيم مبنًى ومعنًى وبلاغةً وحكمةً ودستورًا وشريعة، وقد يحتاج إلى مئات الحلقات، كما يمكن أن يُجتزأ منه أفلام مصوّرة تبدأ من ١٥ دقيقة إلى ستين دقيقة، وفي ذلك تاريخ الأمّة الإسلاميّة والهويّة الحضارية لهذا الدّين الحنيف.

وقد يحتاج ذلك إلى مؤسسة خاصة تنتج برامج وأفلامًا للصّغار والكبار، وهذا من صلب الدّعوة والدعاية للدّين الذي صرّح عنه القرآن العظيم ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

إنّ إنشاء مؤسسة تعنى بشؤون المصحف صورة ومادّة مشوّقة هي من واجب الحكومات الإسلامية، وكما أنَّ هناك (مجمّع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم) والذي يعنى بالطباعة فحسب، لابد من وجود من يعنى بالصّورة والفيلم، وقديمًا انطلقت من مصر الصورة السمعيّة للقرآن العظيم فأنشئت إذاعة القرآن الكريم ردًّا على افتراءات اليهود الّذين حاولوا تزوير القرآن الكريم ونشره في إفريقية، ونحن اليوم نواجه عدوًّا شرسًا من خلال الإعلام يشوّه الحقائق وينشر الأباطيل، ونقف عاجزين في خدمة كتاب الله عزّ وجل.

إنه لابدّ من تقديم صورة القرآن العظيم بأسلوب بعيد عن الشطط والتقعّر والحذلقة (ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضّوا من حولك)، وفي قرآننا العظيم ولدت جميع العلوم والفنون، فكان النحو والصرف والبلاغة وعلوم التفسير والتفسير والأدب والتاريخ والجغرافيا والفلك والطبّ والهندسة وغير ذلك.

استقراء:

في ٢٦ رمضان ١٤٣١هـ ـ ٥ سبتمبر إيلول٢٠١٠م ـ جرى الاحتفال بمناسبة مرور أربعة عشر قرنًا على نزول القرآن الكريم في إستانبول، وكانت (أرسيكا) التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي قد دعت لهذا الاحتفال الذي تمّ تحت رعاية رئيس الوزراء رجب طيّب أردوغان وحضوره وحضور ممثلين من اثنتين وخمسين دولة عربية وإسلامية وفي حفل الافتتاح، عرضت فيلمًا قصيرًا لرحلة القرآن العظيم ناطقًا باللغة التركية مع ترجمة بالإنكليزية والعربية (سَبتايتل) وكان الفيلم مفاجأة

للوفود، كما عرضت مساء اليوم ذاته فيلمًا ينطق بالعربية وتلقيّت دعوات من أغلب رؤساء الوفود للحصول على نسخة من الفيلم، وقد وعد رئيس مركز الأبحاث بذلك وأطلق على عام ٢٠١١، عام القرآن الكريم، كما ناقش الملتقى مسألة توحيد رسم المصحف في العالم الإسلامي والاعتماد على مخطوطات القرآن الكريم الموجودة في متاحف العالم، وكنت قد تقدّمت بورقة في ملتقى ضمّ بعض القرّاء أمثال الشيخ القارئ المعصراوي شيخ قرّاء مصر والشيخ كريّم راجح شيخ قراء الشام، وقراء من تركيا وغيرها بينت فيها الاختلاف في الرسم الاملائي للقرآن الكريم بين أهل النقل والوثائق.. والذين يتحدثون عن الرسّم العثماني ويأخذون من كتاب المقنع للداني ومختصر التبيين لهجاء التنزيل لأبي داود وقد اعتمد هذان العالمان على رأيهما الشخصي في بعض المواقع ومن ذلك:

ذكر أبو داود أن كلمة (مثوى) في سورة يوسف (١٢/ ٢٣) تكتب بدون ألف بين الواو والياء لكنّ هذه الكلمة كتبت في المصاحف المطبوعة (مثواى) موافقة لماذكره الدّاني، وفي المخطوطات بدون ألف. ذكر الدّاني أن كلمة (حياتكم) في سورة الأحقاف (٢٠/ ٤٦) كتبت بالألف في الغالب، بينما ذكر أبو داود أنها تكتب بدون ألف (حيتكم) وكذلك في المخطوطات، أمّا المطبوع فقد كتبت على ماذكره الداني. وكذلك كلمة (جى) في سورة الفجر (٨٩/ ٢٣)، وكلمة (مبركا)، (مبرك)، (مبركة)، (بركنا) كان ينبغي أن تكتب كلّها في كلّ المواضع بدون ألف ولكنها كتبت بالألف، وفي صيغة التثنية

(فخانتاهما) في سورة التحريم (٦٦/ ١٠) كتبت بالمصاحف بالألف مع أنها في المخطوطات بدون ألف.

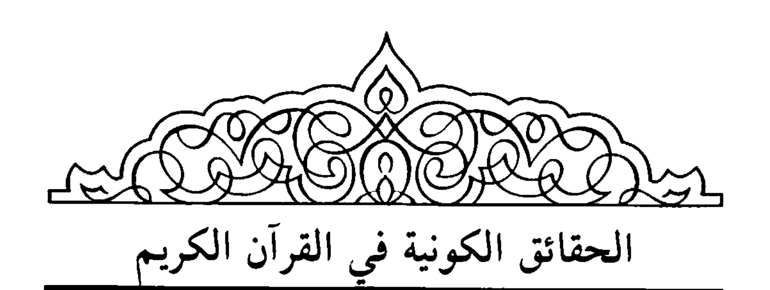
وهناك كلمات كثيرة مغايرة للرّسم الإملائي، ولذلك يجب العود إلى أقدم المخطوطات للمصاحف الموجودة في طشقند وطوب قابي سراي ومتحف الأثار التركية، ومصحف القاهرة ومصحف صنعاء ويستفاد منها في تحديد الرسم ويؤخذ منها رسم الكلمات التي لاتوجد لها رواية أو معلومة في المصادر حتى أنه يمكن الأخذ بعين الاعتبار الاطلاع على الأوراق الموجودة في متحف لندن وبيترسبورغ، وباريس.. فمثلًا لا توجد رواية حول كتابة كلمات (بايت، باييت/ باييتنا، يايتنا/ باييته، بايته) التي تبدأ بحرف الجر الباء بياء واحدة أم بياءين، فقد كتبت في المصاحف المخطوطة بياء واحدة تارة وبياءين أخرى. وكذلك كلمة (تقاته) (تقته) حيث لاتوجد لها رواية. وكثير كثير من الكلمات التي لامجال لإحصائها وإيرادها هنا في هذا البحث.

لقد انتهى الاحتفال ومرّ العام وجاء بعده آخر ولم يلتفت أحد لتوصيات المؤتمر ونسي الحاضرون والمجتمعون كلّ ماجاؤوا من أجله وبقيت المحاولات الفرديّة. من خلال الفيلمين القصيرين اللذين قدمتهما وعرضتهما. وجدت كم نحن بحاجة لمثل هذه الأفلام التي تفيد الخاصّة أكثرمن العامة، ولأنها خلاصة تجربة طويلة، وكم أسعدني حين رأيت الإصرار على اقتناء نسخة من الفيلم من شيوخ القراء ومن مدير مجمّع الملك فهد، وأدركت كم للصورة من سحر في نفس المتلقّي، وهي وثيقة يتبيّن من خلالها التاريخ الحقّ للكتاب المجيد الذي لايأتيه الباطل.

إنَّ المعرفة تحتاج لمن يصوغها، كما أنَّ وعاء الحكمة لابد أن يكون صافيًا ليستوعب مايوحى إليه.. وإذا وصلت الأحاسيس بمعالم الإدراك إلى سبر غور النفس زالت كثف الحجب ببوادر الأنوار.. فلنزل كثف الحجب ونخرج إلى النور الجوهر علّ الإنسان يكون رشيدًا.



أفكار ومشاريع



الحقائق الكونية في القرآن الكريم

وخطورة الخطأ في ترجمتها

مشروع سلسلة أفلام وثائقية

● أ.د/ أحمد أعراب ●

جامعة عبدالمالك السعدي/ المغرب

موجز

نقدم في هذه المقالة، مشروع سلسلة من الأفلام الوثائقية حول الحقائق الكونية المذكورة في القرآن الكريم وخطورة الخطأ في ترجمتها إلى اللغات الأخرى، ذلك أنها تقلب الحقائق الكونية، وتعرضها بصورة مشوهة تناقض الواقع، وتعطي للقارئ فكرة مغايرة لما جاء به القرآن، فتقدم الترجمة باعتبارها قرآنًا منزلًا من عند الله.

قد تفسح هذه الأخطاء المجال لأصحاب الأغراض السيئة إلى استعمالها لإثارة البلبلة في فهم القرآن واستبعاد ربانية مصدره فتنشر أفكارًا مشوهة ومعادية للدين الإسلامي.

سنعتمد في إنتاج هذه السلسلة الوثائقية، تقنيات حديثة باستعمال مبيانات، ورسوم متحركة ثنائية وثلاثية الأبعاد.

مقدمة:

إنَّ الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم على محمد ﷺ بلسان عربي وكلفه بتبليغ آياته البينات إلى البرية كلها فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، فالعرب الذين نزل القرآن بلغتهم بمقدورهم قراءة هذا الكتاب وفهمه، ولكن سائر الأمم غير العربية، المسلمة منها وغير المسلمة في ذلك سواء، تتوقف معرفتها لما في القرآن وفهمها الإسلام على ترجمة هذا التنزيل إلى لسانهم.

وقد كثرت ترجمات القرآن الكريم، حيث أصبحنا نجد أكثر من ترجمة في اللغة الواحدة، وعدد هذه الترجمات متزايد وهي في غالبيتها أعمال فردية معرضة للخطأ والصواب، وتحتاج إلى إعمال النظر فيها ونقدها، لتصحيح واستدراك ومراجعة ما ورد فيها من مغالطات واعتماد ما كان صائبًا منها وتبنيه.

إنَّ موضوع ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية موضوع جد هام وخطير، ذلك أنَّ القرآن هو كلام الله لفظًا ومعنًى بلسان عربي بليغ وجيز ليس كمثله شيء، وهذه الخصائص وغيرها تجعل من ترجمة القرآن لفظًا ومعنى أمرًا مستحيلا. فكيف يمكن الإتيان بترجمة صحيحة تحفظ للقرآن الكريم معانيه الدقيقة وحكمه البالغة، خاصة إن كان من قام بها لا يتوفر فيه أدنى شرط ينبغي توفره في الترجمان؟ ولهذا ونحوه، وقعت أخطاء كثيرة فيما ترجم من معاني القرآن، ومن هذه الأخطاء، خطأ المترجم لمعاني الآيات الكونية في القرآن الكريم؛ لأنَّ

القرآن الكريم حمل إشارات إلى ظواهر كونية جنبًا إلى جنب مع الهداية والتشريع والبيان، تنبه الناس إلى عظيم صنع الله في آفاق السماوات والأرض ليقروا عن طواعية وببصيرة حية بربانية مصدر القرآن الكريم.

ونظرًا لهذه الأهمية، كان الخطأ في ترجمة معاني الآيات الكونية، خطًا شنيعًا؛ لأنه يقلب الحقائق الكونية، ويعرضها بصورة مشوهة تناقض الواقع، وتعطي للقارئ فكرة مغايرة لما جاء به القرآن، فتشكل هذه الأخطاء المخالفة للحقائق العلمية المجمع عليها خاصة بالنسبة للعقلية المعاصرة المتشبعة بروح العلوم الصرف حاجزًا أمام غير المسلم يحول دون انتشار الإسلام عند الشعوب التي لا تدين بالإسلام، وسببًا يبعث القلق في نفس المسلم الذي لا يعرف العربية أو لا يجيدها ويقصد من أجل فهم دينه ومعرفته ترجمات قد ملئت خطأ، فيفهم هذا القارئ وذاك أنَّ هذا المعنى الخاطئ هو عين معنى الآية، فينسب هذا الخطأ للقرآن، وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فيتنكر لهذا الدين الذي حسب ظنه يخالف المعطيات العلمية ويعارضها.

وفي هذا الإطار يندرج مشروعنا لإنجاز سلسلة أفلام وثائقية تتناول الحقائق الكونية في القرآن الكريم وتنبه إلى جسامة الخطأ في ترجمتها، وقد استمدت مادته من رسالة الدكتوراه للأستاذة كريمة الليحياوي، والمعنونة: «دراسة تحليلية وموازنة لترجمات معاني بعض الآيات الكونية في القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية».

ويمكن إجمال الأسباب الداعية إلى اقتراح هذا المشروع فيما يلي:

- شيوع ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغات الغربية ووفرتها،

وكثرة تداولها من طرف الغربيين الغير المسلمين، وكذا الطلبة، والمثقفين المسلمين، وأبناء الجالية المسلمة القاطنة بالديار الغربية، مع ما فيها من المؤاخذات والمغالطات تخص الآيات الكونية.

- خطورة القضايا المتعلقة بترجمة القرآن الكريم، حين تعرض الحقائق الكونية بصورة مشوهة وتقدم الترجمة باعتبارها قرآنًا منزلًا من عند الله.

- تفسح الأخطاء الواردة في ترجمة الآية الكونية في القرآن، المجال لأصحاب الأغراض السيئة إلى استعمالها سلاحًا لإثارة البلبلة في فهم البلاغ المحمدي واستبعاد ربانية مصدره فتنشر أفكارًا مشوهة ومعادية للدين الإسلامي.

- وجوب تحصين المجتمعات الإسلامية وكذا الغربية من مخاطر الترجمات المتداولة والتنبيه إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر مما تحمله من معلومات ومعان خاطئة وعدم التسليم لها.

- عدم وجود أفلام وثائقية تعنى بنقد ترجمات معاني القرآن.

- الحاجة تدعو للقيام بمثل هذه الأفلام الوثائقية باعتبارها وسيلة ضرورية تنبه الناس للأخطاء التي تتضمنها ترجمات معاني الآيات الكونية بهدف إنجاز ترجمة أسلم وأحسن تتضافر فيها جهود الأمة الإسلامية بأكملها.

يعتبر هذا المشروع عملًا رائدًا في مجال علوم القرآن، حيث سنعرض لدراسة ترجمات معاني الآيات الكونية في القرآن التي تخص علوم الأحياء وعلوم الأرض والبحار... وسنعتمد في هذه السلسلة

الوثائقية، تقنيات حديثة لعرض الحقائق والمعطيات، باستعمال مبيانات، ورسوم متحركة ثنائية وثلاثية الأبعاد.

فالسلسلة الوثائقية الأولى تخص ترجمة الآيات الكونية في مجال علم الأحياء، وهي مكونة من جزأين ؛ الجزء الأول منه سنعرض فيه ترجمات بعض الآيات الكونية في مجال علم التوالد، ونظرًا لأهمية هذا الفرع من فروع علم الأحياء ارتأينا أن نخصص له الجانب الأوفر، نتناول فيه الآيات التي تعنى بموضوع النطفة والعلقة والمضغة، والصلب والترائب، وكذا ترجمات الآيات التي تعرض لظاهرة الأزواج عند الكائنات الحية.

ويعرض الجزء الثاني من السلسلة الأولى ترجمات آيات كونية تخص مواضيع أخرى لها ارتباط بعلوم الأحياء، وتشتمل على ترجمات آيات الذرة، والأنعام، وآية الفَراش...

وفي السلسلة الوثائقية الثانية سنهتم بترجمات آيات كونية تخص علوم البحار، مثل ترجمات الآيات التي تشير إلى وجود حاجز بين البحرين، وترجمات آية الظلمات في البحر اللجي.

أما السلسلة الوثائقية الثالثة فتتناول علوم الأرض، كترجمات آية تتحدث عن تعاقب الليل والنهار، وترجمات آية أدنى الأرض، ثم ترجمات آيات تشير إلى نقص الأرض من أطرافها...

وتقوم منهجية هذه الأفلام الوثائقية على الاستقراء والتحليل والموازنة؛ فالاستقراء يقوم على تتبع ترجمات آية كونية أو آيات كونية تخص موضوعًا معينًا أو جزئيات معينة تعنى بمفهوم واحد، ثم تصنيفها

حسب مجال العلوم الكونية التي تشير إليها، فبعد عرض الآية القرآنية، نقدم المعنى اللغوي لبعض الكلمات الواردة فيها، ثم نهتم ببيان أقوال المفسرين من مختلف المدارس التفسيرية، كي تكون نظرتنا شاملة ومحيطة بمختلف الآراء والأقوال الواردة في الآية الكونية من جهة، ومن جهة أخرى ليتبين لنا مدى التزام المترجمين بخطة عملهم التي ألزموا بها أنفسهم في مقدمة ترجماتهم حيث أشار بعضهم إلى مجموعة من التفاسير التي اعتمدوها عند قيامهم بعملية الترجمة، ثم نقدم بعد ذلك المنظور العلمي للآية المدروسة إن وجد، إما باعتباره حقيقة علمية أو مجرد تفسير محتمل، وبعد ذلك نعرض ترجمات الآيات الكونية عند كل مترجم على حدى مرتبة حسب تاريخ إصدارها بدءًا بالمتقدمين فالمتأخرين.

وفي الأخير نعرض دراستنا لترجمة الآيات الكونية بالوقوف عند كل مقابل باللغة الأجنبية فنبين معناه اللغوي من خلال المعاجم، ومن اختاره من المترجمين ثم نوضح مدى موافقة مدلول معنى اللفظ أو التعبير المقابل في الترجمة لمعطيات العلم الحديث، وننبه إن كان هذا الاختيار هو قولا من أقوال المفسرين أو اللغويين، وهكذا يتكرر نفس النهج مع باقي الألفاظ والمقابلات المكونة للآية المترجمة مع المناقشة والموازنة بين المفاهيم التي جاء بها المترجمون وقد نرجح في بعض الأحيان الترجمة الأنسب والأصوب، مع تذييل كل دراسة لترجمات آية أو آيات كونية بخلاصة تجمع أهم الملاحظات.

وسنحاول التزام الموضوعية في إعداد هذا المشروع بعدم التحامل أو التحمس بإصدار أحكام على أي مترجم؛ وقد عزمنا من أجل ذلك

تناول عدد كبير من أشهر الترجمات الغربية المتداولة، الجديدة الإصدار والقديمة، ترجمات بعضها قام بإنجازها مسلمون وأخرى أعدها مستشرقون أو أصحاب مذاهب معينة.

وعند معالجتنا لهذه السلسلة الوثائقية سنحاول أن نجيب على مجموعة من التساؤلات، نذكر منها:

- كيف تعامل المترجمون مع نقل معاني الآيات الكونية، وما هي أهم الاعتبارات التي اعتمدوها في اختيار المقابلات؟

- هل يوجد توافق بين المعنى المختار لترجمات الآيات الكونية أو مفهوم بعض ألفاظها والمعطيات العلمية؟

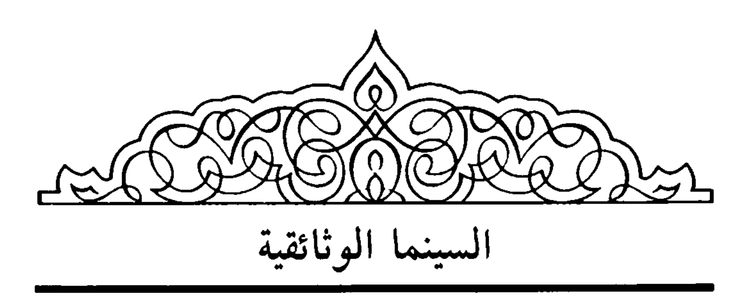
- هل هناك اختلاف بين ترجمات معاني بعض الكلمات الواردة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم عند المترجم الواحد؟

- كيف تعامل المترجمون مع بعض الكلمات والألفاظ الواردة في آيات كونية تفيد المعنى نفسه من مواضع مختلفة من القرآن الكريم؟

- كيف تعامل المترجمون مع بعض الألفاظ والعبارات جاءت في عدة مواضع من القرآن الكريم يتغير معناها حسب تغير السياق؟

- هل هناك اختلاف بين الترجمات التي قام بها المسلمون وتلك التي أنجزها المستشرقون أو غيرهم؟

- هل يمكن التماس تطور في عملية الترجمة من خلال دراسة ترجمات مختلفة الحقب؟



السينما الوثائقية

في خدمة القرآن الكريم وعلومه «البُقعَة المُبَاركة» نموذجًا

● أ/ خالد صالح مصطفى ●
كاتب سيناريو/ مصر

لماذا كل هذا الاهتمام العالمي بالفيلم الوثائقي؟!

يعود تاريخ الفيلم التسجيلي إلى أواخر القرن التاسع عشر، حيث بدأت خطواته الأولى متوازية تمامًا مع خطوات نشوء فن السينما ذاته، وكان ذلك تحديدًا في عام (١٨٩٥م)، حيث ولدت السينما التسجيلية على يد الأخوين الفرنسيين «لوميير»..

كان الأخوان قد قدما عرضًا وثائقيًّا لمدة دقيقتين، وكان الفيلم يتحدث عن قطار يدخل المحطة وفي الوقت نفسه نرى عمالًا يخرجون من المصنع بعد انتهاء عملهم، يتجهون نحو القطار. كانت السينما أيامها لاتزال صامتة.

وقد سجل تاريخ الفن الإنساني حينئذ ميلاد فن جديد يُسمّى السينما الوثائقية أو «التسجيلية»، لم يكن معنيًّا فقط باستعراض الواقع كما هو،

ولكن باختيار ذكي لأماكن وزوايا التصوير، وأيضًا باستخدام التوليف «المونتاج» المعبّر عن إيقاع العمل، يُظهر ذلك الواقع من وجهة نظر صنّاع الفيلم، والتي تكون ـ أحيانا ـ مخالفة لذلك الواقع..!، وهذا لا يُدين فن السينما الوثائقي ذاته، وإنما يُدين من يحرّف الحقائق باستخدام أدوات هذا الفن الراقي.

وقد أخذت السينما الوثائقية في النمو والتدرّج، لتأخذ اليوم مساحة غير قليلة من اهتمام المثقفين في العالم كله، لا سيما بعد أن ارتدت الأفلام حُللا إبداعية شتى، ومع تقدّم تقنيات التصوير والتوليف (المونتاج)، وأيضًا مع تضافر شريط الصورة وشريط الصوت وتوافقهما وتكاملهما، بقدر إحساس وإبداع المخرج والموّلف (المونتير).

وليس السرّ في الإقبال على إنتاج الأفلام الوثائقية في العالم كله هو وجود قنوات ومسابقات ومحافل دولية لعرضها فقط، بل السبب الأهم هو قدرة هذه الأفلام على إلقاء الضوء على الواقع بلغة احترافية معاصرة، وبوسائط عديدة ترتقي بالعمل وتجعل نسبة تأثيره أعلى بكثير من سائر الوسائط الأخرى؛ حتى أن قدرات الأفلام الوثائقية على الترويج والإشهار، فضلًا عن التعبير الفني والجمالي المبهر للواقع المنظور، قد استقطبت كبرى الشركات التجارية والمؤسسات الحكومية، بل والدول ذاتها، لتروّج لنفسها باستخدام هذا الفن الراقي المتميز.

السينما الوثائقية في خدمة القرآن الكريم:

أما عن محور إمكانية نشر القرآن الكريم وعلومه، وتعريف الشعوب والأمم المختلفة به، من خلال الفيلم الوثائقي، فليس هناك ثمّة

مشروعات عربية تصلح لتكون نماذج مؤثرة ذات بال في هذا الباب، وإنما أغلب ما تم إنتاجه من أفلام وثائقية تتناول القرآن الكريم، كان من إنتاج الغرب، لذا فإن الأمر يبدو كأنه أطروحة جديدة مُستحدثة، علينا أن نتمسك بها، ونستوثق من طرحها على المستوى النظري أولا، ثم ليبدأ المهتمون ومحترفو هذا الفن في تنفيذ عدد من الأعمال التي ستكون أشبه بالإرهاصات التي يتولد بسببها - بإذن الله - جيل من المبدعين المسلمين، من الذين يقدِرون لكتاب الله تعالى قدرَه، وفي نفس الوقت يكونون الأقدر والأجدر على تنفيذ الأفلام الوثائقية القرآنية بمستويات إبداعية متميزة وراقية.

فلا يصح أبدًا أن يصنع المبدعون المسلمون أفلامًا وثائقية عن خير كتب العالمين قاطبةً، والذي احتوى بين دفتيه بحارًا زاخرة بالعلوم، بمستوى لا يتميز عن سائر أفلام العالم الوثائقية.

وهناك عدة أسباب وسمات في القرآن الكريم يجعله متوافقًا تمامًا مع منهجية صناعة الفيلم الوثائقي، ومساعدًا على نجاح أي فيلم يُنفذ عنه أو تكون مادته الأساسية مستمدة منه، إن أتقن صنّاعه تنفيذه، وبوجه خاص أتقن كاتبوه وضع السيناريو المحكم له، أهم هذه السمات:

أولًا: القرآن الكريم قد احتوى على أحسن القصص على الإطلاق، وهذا بحكم رب العالمين (عز وجل)، كما ورد في مطلع سورة يوسف ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ

نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (يوسف: ١ ـ ٣).

ثانيًا: ليس هناك مجرد شك واحد في صحة كل ما ورد في القرآن الكريم، فكما قال (عز وجل) في سورة فصلت: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤١ ـ ٤٢) فهذا يضمن المصداقية التامة للأفلام الوثائقية التي تُستمد منه.

ثالثًا: القرآن الكريم بما أمرنا الله تعالى من ترتيله بإتقان، حين يُتلى بأصوات جميلة رخيمة، فإنه يضيف مادة غنية لشريط الصوت في الفيلم الوثائقي، تعجز كل المؤثرات الصوتية الأخرى، أن تأتي بتأثير يُضاهي تأثيره العجيب في النفس البشرية، حتى لدى من لا يفهمون كلمة واحدة منه..!

رابعًا: لأنَّ القرآن الكريم ليس بكلام البشر، فإن مادته لها خصوصية لا توجد في أي مصدر آخر، وهي التنوع والثراء وعدم الالتزام بقالب واحد، وعدم الالتزام بصوت واحد يتحدث فيه، برغم أنه كله كلام الله تعالى يُحدث عباده به إلى يوم القيامة، كما أنه ليس مجرد قصص فقط، ولا تعاليم أخلاقية وسلوكية فقط، وليس منهج حياة متكامل لصالح الإنسان وكل ما يحيط به من مخلوقات فقط، وليس أخبارًا عن أمور غيبية من الماضي وفي المستقبل فقط، ليس القرآن كل هذا فقط، بل هو أعمق وأوسع منه بكثير. إنه معجزة محمد ﷺ، منذ نزلت عليه «اقرأ» في غار حراء وحتى اليوم. وهذه الميزة الفريدة تشكّل مَعينًا لا ينضب لفن السينما الوثائقية حين يقرر بعض صنّاعها ولوج

عالم القرآن الكريم، وإزاحة الستار عن أسراره الدفينة عن طريق هذا الفن الراقي.

خامسًا: لأن هذا القرآن كتاب هداية وبِشْر للبشر أجمعين، كما قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩)، فمن كانت نيته الخير بصنع أفلام وثائقية تعرّف الأمم بهذا الكتاب الكريم، وتنشر علومه في سائر أرجاء الأرض، فلن يجد خيرًا من القرآن الكريم ذاته، كزاد له أثناء قطعه هذا السبيل الطيب النافع، وسيشمل عمله على الحسنيين إن أتقنه: العمل المحترف الدنيوي، وكذلك الدعوة إلى الله تعالى والتعريف بكتابه العزيز.

فيلم وثائقي يتناول نزول الوحي على سيدنا موسى في طور سيناء.. كنموذج:

عندما نختار موضوعًا قرآنيًا ليكون هو المصدر لفيلم وثائقي كنموذج لما نطرحه في هذا المقال، وحيث أننا نستهدف من هذا النموذج أن يساهم في التعريف العميق بكتاب الله العزيز بين الشعوب والأمم المختلفة، فلزامًا علينا أن نختار موضوعًا متوافقًا مع ثقافة وقناعات شريحة كبيرة من تلك الأمم..

لذا فسنأخذ قصة نزول الوحي على نبي الله موسى عليه السلام في طور سيناء، بسبب مالهذه القصة من أثر بالغ القوة والعمق في تاريخ البشرية كلها، وهي تتوافق مع أصحاب الكتب السماوية الثلاث..

فلنتخيل الحالة النفسية والذهنية التي كان عليها نبي الله موسى وهو

عائد من مديَن بعد عشر سنين من الغربة عن مصر، التي عُرف فيها كربيب لفرعون، حيث نشأ في قصره، وتغذّى من طعامه!، بينما حتفه وهلاكه وهلاك جنده سيكون على يديه بعد حين من الدهر!؛ لنعلم جميعًا أنَّ رب السموات العلا (عز وجل) هو القاهر العظيم القوي العزيز شديد المحال، فما شاء (عز وجل) كان، ومالم يشأ لم يكن، إن القصة كلها عبارة عن سلسلة من الأحداث المفاجئة المباغتة، ومن أعجبها وأكثرها مفاجأة: لحظات تلقي الوحي لأول مرة في طور سيناء.

لم يكن موسى يعلم مما هو صائر شيئا، فقط كان يخاف من بطش فرعون وجنده به، بل ومن المصريين من آل فرعون كلهم، لقتله رجلًا منهم حين أراد أن يدفعه عن الإسرائيلي الذي استغاث به، ثم وشى به بعد ذلك!

كان موسى عليه السلام قد اشتاق إلى بلده التي ولد ونشأ فيها، واشتاق إلى أهله من بني إسرائيل، وإلى امرأة فرعون التي ربته وأنقذته من الهلاك، فعزم على زيارتهم، وسار بأهله وما كان معهما من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم الطريق من مدين إلى مصر، في ليالي شديدة الظلمة والبرودة، عبر شبه جزيرة سيناء.

وأخيرًا، وبعد سير طويل، وتحديدًا عند سفح جبل الطور، كان موسى قد أيقن أنه قد ضلّ الطريق، فأصابته حيرة شديدة، أضيفت لما هو فيه من تعب وخوف. وكانت الإنفراجة أخيرًا، حين لمح موسى نارًا على مسافة بعيدة، فأسرع نحوها رغبةً في السؤال عن الطريق لدى من أشعلوها، وأيضًا كي يصطحب جزءًا منها لأهله؛ يستدفئون بها، وهنا

حدثت المعجزة التي جعلت من موسى الإنسان الوحيد في تاريخ البشرية، الذي كلمه الله تعالى بشكل مباشر، وذلك كما حكى القرآن الكريم في سورة القصص: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (القصص: ٣٠)، أي أن الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعّال لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه.

كم هي لحظات جليلة في تاريخ الإنسانية أن يتم تكريم عبدٍ من عباد الرحمن لهذه الدرجة السامقة الرفيعة؛ أن يكلمه الله تعالى مباشرة فيستحق لقب «كليم الله»، ويكلّفه سبحانه برسالة عظيمة لا يستطيع أن يضطلع بها إلا رجل من أولي العزم من الرسل، بالذهاب إلى فرعون وتوجيهه نحو الحق، والتوقف عن ادعاء الألوهية، وهو الذي كان ينوي الاختفاء عن أعين فرعون وجنده، ومن يعرفه من آل فرعون من غير المؤمنين بالله، مخافة القصاص منه بسبب قتله للمصري، تلك الحادثة التي كانت سببا في هروبه من مصر إلى مدين، بعد نصيحة أحد المؤمنين من أهل مصر له بالخروج متخفيًا.

فكم تستحق هذه اللحظات المشهودة في التاريخ أن تُخلد في فيلم سينمائي وثائقي، يستقي مادته الأساسية من القرآن الكريم، الذي قال عن قصة موسى وفرعون في مطلع سورة القصص ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (القصص: ٣)، وهنا نلاحظ ذكر كلمة «بالحق» لتوحي أن هذه القصة قد وردت فيها أنباء أخرى كاذبة ومحرّفة بفعل أهل الكتاب، قبل أن تتنزل أنباء هذا القرآن الكريم الحق.

هاتان الفقرتان الأخيرتان تُفصّلان تماما الهدف من هذا الفيلم: التعبير بصدق واحترافية باستخدام فن السينما الوثائقية عن تلك اللحظات الخالدة، وما ساق إليها من أحداث سابقة..

فلندع الآن أسلوب كتابة السيناريو للفيلم الوثائقي هو الذي يقودنا للسبيل الأقوم لوضع خطة هذا الفيلم على الورق (ولنطلق عليه: البُقْعَةُ المباركة)، كنموذج لطريقة إعداد سيناريو فيلم وثائقي يتناول قصة أو حدث من القرآن الكريم.

خطوات بناء السيناريو الأوّلي للفيلم الوثائقي «البُقْعَةُ المباركة» (The blessing Spot)، مع خطوات التنفيذ في المراحل الأولى للفيلم:

إنَّ سيناريو الفيلم الوثائقي هو الأداة التي من خلالها نستطيع التعبير عن العاطفة الجياشة من خلال الأحداث، وتُستخرج بواسطتها العِبرة والمثل من خلال التحاور المتوازي المتناغم بين الصورة والكلمة والمؤثر الصوتي.

ولكي نستطيع بناء سيناريو أوّلي ـ مبدئي ـ ناجح ومؤثر لمثل هذا المشروع، الذي نستهدف منه توثيق أحداث نزول الوحي على نبي الله موسى، علينا أن نحقق الآتي:

أولًا: يجب قبل كتابة السيناريو النهائي، التحقق من موقع هذه «البقعة المباركة» من شاطئ ـ أي جانب ـ الوادي المقدس، وإثبات موقع مناسب للتصوير على خط سير موسى عليه السلام وأهله من مدين وحتى

هذه الشجرة التي رأى موسى النار عندها، في تلك البقعة المجاورة للجهة الغربية من جبل الطور، كما ورد في سورة القصص ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (القصص: ٤٤)، والغربيّ تحتمل أن تكون الجهة التي كانت جذوة النار فيها من الوادي المقدس «طوى»، الذي يقع في سفح جبل الطور مباشرة، أو قد يكون مقصود بها غرب مياه خليج العقبة، وإن كان الاحتمال الأول أقوى، بسبب تكرار ذكر جبل الطور، عندما أعادت آيات سورة القصص المنّ على محمد ﷺ بنزول هذه القصة بتفاصيلها عليه (وحقّ لله تعالى أن يمنّ على عباده بفضله وكرمه عليهم)، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٤٦) فالمشهد كله متعلق بجبل الطور، الذي شهد تلك الأحداث التي حبس التاريخ لها أنفاسه.

وفيما يلي صورة توضيحية لموقع «الوادي المقدس» الذي شهد بدء نزول الوحي، من خلال أول كلام بين رب العزة (عز وجل) وبين عبده ونبيه ومصطفاه موسى بن عمران عليه السلام:

ثانيًا: تحديد الآيات القرآنية التي تسرد الحدث بدقة، تلك التي سنعتمد عليها في كتابة السيناريو (والتي وردت في سورتي طه والقصص)، والتي ستُتلى على شريط الصوت للفيلم. كما يمكننا أن نأتي ببعض الأخبار والأنباء غير الموافقة لآيات القرآن الكريم مما لدى أهل الكتاب، لنشير إليها ـ مرور الكرام ـ عبر الفيلم، مثْبتين أن هذه الأنباء ليست هي الحق، لمخالفتها لنبأ القرآن الكريم.

ثالثًا: يجب اختيار قارئ للقرآن الكريم، لا يختلف عليه المشاهدون من المسلمين، وأيضًا يكون صوته مؤثرًا وجاذبًا لغير المسلمين ولمن لا يعرف العربية (مثل الشيخ محمود خليل الحصري أو الشيخ علي عبدالرحمن الحذيفي).

رابعًا: الاختيار السليم لكلمات التعليق، وأيضًا لصوت المعلّق، هما من أهم عناصر نجاح الفيلم الوثائقي، فكلما اتسمت الكلمات بالرصانة والموسيقى الداخلية، وكلما تميّز صوت المعلق بمخارج الحروف السليمة الفخمة، وكذلك الإيقاع الجميل المتناغم، كلما استطاع الفيلم جذب انتباه المشاهد أكثر، وحقق نجاحا أوسع.

خامسًا: يتم عمل معاينة لأماكن التصوير، تجمع بين كاتب السيناريو والمخرج ومدير التصوير، وبعد تحديد كل الأماكن الرئيسية للتصوير، يشرع كاتب السيناريو في كتابة السيناريو الأوّلي.

سادسًا: يتم تصوير كل المشاهد المكتوبة في السيناريو الأوّلي، بالإضافة لكل ما يراه المخرج ـ بمساعدة مدير التصوير ـ قيمة مضافة للفيلم.. وكذلك تُجمع في شريط الصوت كل الأصوات التي تضيف قيمة للفيلم من مواقع الأحداث.

الخطوات التنفيذية النهائية للفيلم:

١ ـ بعد تحقيق كل النقاط السابقة بدرجة عالية من الدقة، يشرع كاتب السيناريو في وضع السيناريو التنفيذي النهائي، على ضوء ما تم تصويره من المشاهد الأصلية في السيناريو الأوّلي، وأيضًا المشاهد

الإضافية، وما رآه المخرج من تعديلات لا تؤثر سلبا على السياق العام للعمل.

٢ ـ يُستخرج التعليق من السيناريو النهائي، ويتم تنفيذه في استوديو صوت متميز (يجب ملاحظة الأثر الكبير لجودة الصوت في نجاح الفيلم الوثائقي، على المستويين الجماهيري والفني).

٣ ـ يتم تجميع كل المشاهد حسب السيناريو النهائي، تجميعا مبدئيا يتعاون فيه مخرج الفيلم مع المؤلف ـ المونتير ـ في تنفيذ الفيلم بصورته النهائية، على هُدى من شريط الصوت الذي يجمع بين التلاوات والتعليق وصوت الممثلين والأصوات الطبيعية والمؤثرات الصوتية الآلية (هنا تبزغ قدرات المخرج الإبداعية، فقد يقرر وهو في حجرة المونتاج تعديل سياق الفيلم بشكل مختلف عن السيناريو المكتوب، وهذا حقه تماما، طالما زاد هذا التعديل من القيمة النوعية للفيلم، ولم يُخرجه عن دائرة الأهداف المرجوة منه).

٤ ـ يتم تنفيذ عملية التوليف النهائية مع عملية «المكساج» (دمج الصوت كله على شريط واحد، بعد أن يُجمّع من كل «تراكات» الصوت المشاركة في العمل)، بحيث يكون التأثير النهائي للفيلم مُريحًا ومبهرًا للمشاهد، وتكون كل عناصر العمل واضحة، بحيث تعطى التأثير المطلوب في وجدان المشاهد، وهو في حالتنا هذه: وضع المشاهد في حالة من الانبهار والروحانية المناسبة لتلك اللحظات التاريخية، التي حدث فيها ـ لأول مرة ـ تواصلٌ مباشر من الله تعالى نحو واحد من عباده الصالحين.

نموذج لأول مشهدين من فيلم «بقعة مباركة»:

المشهد الأول

ـ لقطة عامة.. وقت الشروق

الكاميرا تستعرض منطقة الوادي الملاصق لجبل الطور في حركة أفقية ـ «بان» ـ ناعمة..

ـ مزج

ـ نار موقدة في الجانب الغربي من الوادي، يجلس بجوارها رجل أعرابي وابنه يلتمسان الدفء.. وإلى جوارهما جمل راقد.

ـ «زووم إن» نحو النار.. بطيء للغاية (يُغلق معه المشهد)

ـ صوت ترتيل جميل..

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ (القصص: ٢٩)

ـ صوت المعلّق..

ـ في لحظاتٍ قادمةٍ هي الأكثرُ إثارةً في تاريخِ الإنسانية.. تترقبُ تلك النار قادمًا من مسافة ليست بعيدة.. سيكون له شأن معها، بل ومع الأرض والسماوات!، بعد ساعات معدودة..

ـ إظلام تدريجي

المشهد الثاني

ـ لقطة قريبة.. عند الغروب

آثار توحي بأقدام نبي الله موسى وهو يسير في الصحراء ومن خلفه زوجته.. نلمح أقدام أغنام أمامهما..

ـ قطع

ـ لقطة متوسطة مع حركة أفقية للكاميرا «بان»

أغنام كثيرة تسير في الصحراء، من خلفهم أقدام نبي الله ثم من خلفه زوجته..

ـ صوت المعلّق..

ـ منذ اللحظة التي انطلق فيها موسى بن عمران من مدين مع أهله وهو حائر مضطرب، وبرغم عودته لمصر غانمًا ذلك القطيع الذي أهداه له والد زوجه، إلا أنَّ الخوف مما ينتظره في مصر لدى عودته، كان بلا شك يسيطر على نفسه.. كيف لا؟ وصورة خروجه هاربًا خائفا يترقب، كانت بالتأكيد لا تُفارق خياله.

ـ صوت القارئ..

ـ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ٢٠ ـ ٢١)

ـ مؤثر صوتي قوي..

ـ أصوات القطيع عالية..

ـ صوت المعلّق..

ـ وخَرجَ موسى من مصر.. وعاشَ في مَدْين في خدمةِ نبيِّ الله شعيب

عَشرِ سنوات، بعد أن زوّجَه ابنتَه.. وحانَ وقتُ العودة، وهو لا يعلمُ مايفعلُ به فرعونُ وجندهُ إن هم اكتشفوا أمرَه..

ـ أثناء كلمات المعلّق تستعرض الكاميرا لقطات للسماء.. ولبئر يمرّون بها، فنرى (من الخلف) أقدام نبي الله تقف بمحاذاة البئر.. مجموعة من الغنم يقتربون منه ويصدرون أصواتا عالية، كأنهم يصيحون من العطش..

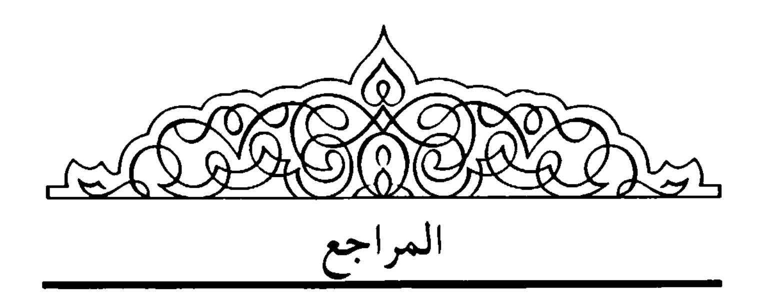
ـ أصوات القطيع أعلى..

ـ النبي موسى يواصل السير ومن خلفه الأغنام ثم زوجه (نراهم من الخلف من بعيد)..

ـ صوت المعلّق..

ـ رغم تلكَ الظروفِ الصعبة في رحلة العودة، إلا أن الفكرةَ التي سيْطرت على موسى كانت غالبًا، وكما ذكرت كتبُ التفسير، هي ضرورةُ أن يختفي تمامًا عن أنظارِ فرعونَ وهامان! ولكن.. هل هذا هو ما خَطّهُ القلمُ بأمرِ اللهِ تعالى في أقدارِه التي لا تتبدل؟، تلك التي كُتبتْ في اللّوحِ المَحْفوظ، وتسردُ كلَّ الأنباء، منذُ بدءِ الخليقَةِ وحتّى قيامِ السَّاعة..؟! (بإيقاع أبطأ، وبإحساس «الحذر») هَلْ سيخْتَفِي مُوسَى بِالفعلِ عَن أنْظارِ فِرْعَونَ وآلِه؟؟!

ـ إظـلام تدريـــجي



المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ كتب التفسير: ابن كثير ـ القرطبي ـ الطبري ـ الرازي.

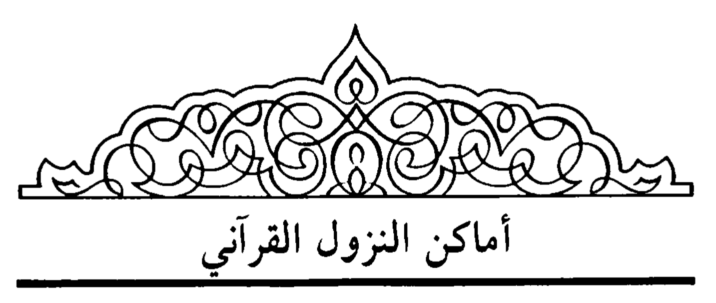
٣ ـ مقال عن السينما الوثائقية بصحيفة «الرأي» السورية، بقلم: بشار صقر.

٤ ـ كيف تكتب سيناريو الفيلم الوثائقي؟ تأليف: تريشا داس. ترجمة: طاهر علوان.

٥ ـ «التصوير الفني في القرآن»، للأستاذ: سيد قطب.

٦ ـ مقال من موقع Media learning Academy بعنوان:

Writing Scripts for Documentary and Feature for Television.



أماكن النزول القرآني

فكرة مشروع سلسلة وثائقية

● د. عمر راغب زيدان ●
مخرج ومنتج أفلام وثائقية/ العراق

حرص الصحابة والتابعون (رضي الله عنهم) على معرفة الأماكن التي نزل فيها القرآن الكريم بل ويسألون عنها من شهدها أو كان له علم بها، وما ذاك إلا إيمانًا منهم بأنَّ معرفة مكان النزول لا يقل أهمية عن سبب النزول في التعرف على معنى الآية وهو ما يساعد على فهمها ويعطي تفسيرًا شاملًا لها.

ومن ذلك قول علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): يا أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، فو الله مابين لوحي المصحف آية تخفى عليّ فيم أُنزلت؟ ولا أين أُنزلت؟ ولا ما عُني بها[(١)]، وفي رواية أخرى: فو الله ما من آية إلاَّ وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار، أم في سَهْل أم في جبل[(٢)].

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٣٣٤، ٣٣٥).
(٢) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٢٤١).

وقال ابن مسعود (رضي الله عنه): والذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أُنزلت؟ ولو أعلم أحدًا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه[1].

كما نلاحظ في مروياتهم ذكرًا لبعض هذه الأماكن، ثم جاء العلماء بعد ذلك فدوَّنوها في كتبهم ومصنفاتهم توثيقًا لها، بل وجعلوها نوعًا من موضوعات علوم القرآن وسميت بمواطن النزول أو نحو ذلك.

وجاء هذا العصر (عصر الصورة) ليوثقها في سلسلة يتعرف من خلالها كل إنسان على دقتهم رضي الله عنهم في توصيف النزول ومكانه، وحتى يُشاهد هذه الأماكن من لم يستطع أن يقترب منها على الطبيعة لبعده عنها مسافات وأميالًا، كما أنَّ التنقيب عن هذه الأماكن وتوثيقها أصبح علمًا يُدرَّس في كليات الآثار والتنقيب في العالم.

فإذا كان السابقون قد وثقوا هذه الأماكن بالكتابة كونها الوسيلة الوحيدة في عصرهم آنذاك فإنه يجدر بنا أن نوثقها بالصورة.

والسؤال: كيف يمكن لنا أن نقدم رؤية إخراجية لمثل هذا العمل، بما فيه من استخدام تقنيات الجمال والتشويق؟!

وكوننا نؤكد على الصورة فإنَّ ذلك له أسباب منها:

١ ـ تطور العصر تقنيًا وتكنلوجيًا حتى أصبح يُسمى بـ(عصر الصورة).

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٦٦٢)، حديث رقم: (٥٠٠٢)، ومسلم (٢/ ١١٥٠) حديث رقم: (٢٤٦٣).

٢ ـ أصبحت الصورة تختزل المشهد بكل تفاصيله.

٣ ـ التأثير الكبير للصورة في المشاهد لما لها من إمكانية إعطاء تفاصيل أكثر.

٤ ـ عزوف الناس اليوم عن القراءة والبحث لكنهم لا يملوا من مشاهدة فيلم لمدة ساعتين.

٥ ـ كون الصورة تَعْلَق في ذهن المشاهد أكثر من الكتابة ولفترة أطول.

من هنا لابد لنا أن نضع نصب أعيننا كيف نقدم رؤية إخراجية لعمل يوضح أماكن النزول القرآني عبر تقنيات الصورة الحديثة والإخراج الاحترافي.

ويكون بمثابة مرجع معتمد لأهل هذا العصر من أجل التعرف على أماكن النزول القرآني ومُعينًا لهم في فهم الآيات وتفسيرها.

الفكرة المقترحة:

عبارة عن مشروع لسلسلة وثائقية (أماكن النزول القرآني) نتناول فيها بالشرح والتوضيح أماكن نزول آيات القرآن الكريم، وكيف نزلت وما رافقها من أحداث يمكن أن تكون معينة لفهم الآية وتفسيرها.

مدة الحلقة: (١٠ ـ ١٥) دقيقة.

عنوان البرنامج: بالإمكان التفكير في عنوان مناسب لطبيعة البرنامج، وذلك بأن يتم طرح أكثر من عنوان كنوع من العصف

الذهني، ثم يتم ترشيح الأنسب بينهم، ومن العناوين المقترحة: (هنا نزلت الآية)، (أماكن النزول القرآني)...

عدد الحلقات: مفتوح.

المعالجة الصورية:

بعد جمع المادة العلمية للموضوع وتحديد تفاصيله بشكل دقيق وموثق وهي ما تسمى مرحلة الإعداد ننتقل إلى مرحلة السيناريو التي ستقوم من خلالها بتحويل ذلك الوصف إلى الصورة، ولكن بالكتابة على الورق بحيث نصف فيه ما هي التقنية والآلية المتبعة في البرنامج.

بعدها يأتي دور المخرج بعد أن يجلس مع كاتب السيناريو وربما يكون المخرج هو نفسه كاتب السيناريو وهذا يحصل كثيرًا في الأفلام الوثائقية والتسجيلية.

تأتي الخطوة القادمة وهي تحويل السيناريو المكتوب الذي يصف الأحداث إلى صورة ذات زوايا وأبعاد مختلفة عن طريق الكاميرا والتقنيات الأخرى المصاحبة لها.

هناك سيناريوهات عدة يمكن أن تتناول الموضوع من خلالها منها: السرد القصصي والديكودراما وغيرها..

إلا أني أميل إلى استخدام طريقة (القايد) وهو الرجل الذي سيكون محور الفيلم وينتقل عبر الحلقات من مكان لآخر من أجل أن يشرح للمشاهد ما أشكل عليه، مع الاستعانة بأهل الاختصاص من الأساتذة

والباحثين ليغنوا الموضوع بشكل أكبر عن طريق معلوماتهم، فتكون الصورة النهائية للحلقة كمعالجة صورية على النحو الآتي:

يظهر في البداية غرافيك فيه الآية، ويظهر صوت لأحد القراء المشهورين يتلو الآيه، ثم يظهر نص الرواية التي يبين فيها الراوي أين نزلت هذه الآية وكيف نزلت مع صوت v.o

ثم يأتي دور المقدم (القايد) ليعبر بكلمات عن هذه الآية وما حوت عليه من إعجاز ولطائف بلاغية وأحكام فقهية إن وجدت لينقلنا بدوره إلى المكان الذي نزلت فيه فتنتقل الكاميرا معه.. ثم تعطينا لقطات متعددة للمكان بأحجام مختلفة يرافقها صوت مناسب.. ثم يظهر المقدم مرة ثانيه ليشرح لنا ما هذا المكان وكيف نزلت فيه الآية.. وهل تحول اليوم إلى معلم آخر؟

هنا يبدأ دخول الضيوف ليغنوا الموضوع بشكل أكثر.

نعود مرة أخرى للمقدم (القايد) ليوضح لنا تفاصيل أخرى لحادثة نزول الآية وسنة نزولها.. وهكذا يبقى الأمر متنقلًا ببعض الأحداث و(ديكودراما) من إبل وخيول وأناس بملابس تاريخية بضيوف على المشهد جماله وحركه ويخرجوه من الرتابة والجمود.

ولا بأس الاستعانة ببعض الخرائط التوضيحية للمكان المرسومة بطريقة الغرافك كوسيلة مساعدة لتوضيح ما لا يسع المقدم (القايد) أو الضيوف إيصاله للمشاهد.

ويمكننا أن نأخذ مثالًا ونجعله محور موضوعنا أو كما نسميه في المصطلح الفني لدينا (بايلوت).

نموذج لإحدى الحلقات:

عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنَّ رجلًا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نَزَلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال: أيُّ آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

قال عمر (رضي الله عنه): «قد عَرَفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نَزَلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة»[(١)].

في البداية يظهر النص الذي يرويه البخاري بطريقة الغرافيك يصاحبه صوت المذيع مع مؤثرات مناسبة.

ثم قطع فيد بلاك تظهر صور للمكان، ومن خلاله يظهر المقدم (القايد) حاملًا حقيبته على ظهره، متوكأ على عصا تساعده على المشي وصعود المرتفعات.. الكاميرا تأخذ له لقطات متنوعة قريبة وبعيدة ثم يقول كلمات أمام الكاميرا عن المكان وخصوصيته.

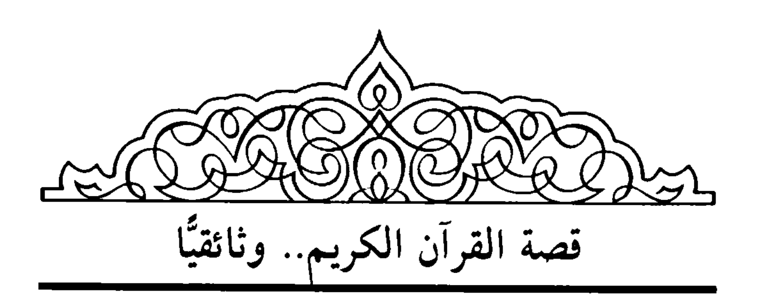
يأتي دور الضيوف للحديث عن سبب قول اليهود أنهم لو كانوا مكان المسلمين لاتخذوا هذا اليوم عيدًا لهم، ولماذا يحسد اليهود المسلمين منذ بعثة النبي محمد ﷺ إلى يومنا هذا؟

تعود الصورة إلى المكان الذي نزلت فيه الآية مع مؤثرات مناسبة يرافقها المقدم (القايد) يمشي مستكشفًا المكان.

أحد الضيوف مختص بالأماكن يشرح لنا بشكل تفصيلي عن ماهية

(١) أخرجه البخاري (١/٨)، حديث رقم: (٤٥).

المكان، وماذا كان يُسمى، وهل تحول اليوم إلى مكان آخر، عودة إلى صور المكان ثم أحد الضيوف يشرح الأحكام المستفادة من الآية، ومدى علاقة المكان بسبب النزول، وكيف يكون معينًا على فهم الآية وأحكامها، ثم يظهر رسم توضيحي بطريقة الغرافيك يوضح طريق سير النبي ﷺ، وكيف نزل هذا المكان، ومن أين جاء إليه، وكم يبعد عن الأماكن المقدسة والمشاعر العظام، قطع فيد بلاك ثم تظهر الآية مكتوبة بطريقة الغرافيك يصحبها صوت أحد القُرَّاء المشهورين ثم تتر النهاية.



قصة القرآن الكريم.. وثائقيًّا

● أ/ جلال عبدالسميع ●
منتج فني أفلام وثائقية/ مصر

يؤمن المسلمون إيمانًا يقينيًّا بأنَّ الإسلام دعوة للعالم كله، لأنَّ الإسلام يؤمن أنَّ البشرية كلها (أسرة واحدة) لذا فقد أعلن القرآن منذ عهده المكي عن عالمية دعوته بعبارات صريحة لا تحتمل التأويل، «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»، وهنا يرد سؤال يحتاج إلى جواب وهو: كيف تكون الرسالة عالمية، وقد بعث بها رسول عربي، أُنزل عليه كتاب بلسان عربي؟ الجواب كما يقول أحد العلماء: إنَّ سنة الله أن يرسل كل رسول إلى قومه بلسانهم ليبين لهم ما أنزل الله إليهم، وما أمره بتبليغه، ليفهموا عنه ويبلغوا ذلك إلى غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤)، ثم على قومه بعد ذلك أن يقوموا بنقل هذه الرسالة من لسانهم إلى الألسنة الأخرى عن طريق الترجمة، وهذه مسؤولية كبيرة، تقتضي من الأمة أن تعد لها العدة، وأن تتخذ لها الأسباب والوسائل والآليات التي تناسب الزمان والمكان، وأن تكون لديها جيوش جرارة، لا من حملة السيوف والبنادق، ولكن من حملة الأقلام والأفكار والإبداع، العارفين

المتقنين، القادرين على التحرير والخطاب المبين، ومن هذه الوسائل الحديثة الفيلم الوثائقي...

محددات لفهم الفيلم الوثائقي:

الفيلم الوثائقي أُنتج لكي يبقى، الفيلم يحجز زمنًا من الحركة، المهم هو كيف ترى ذلك الفيلم؟ كيف تجد العلاقة بين الذاكرة والصورة، ليس بحسبانها توثيق أو ذكريات بل بوصفها كاشفة لعوالم أنضج وأعمق مما هو كائن ومتحرك، ذلك أنَّ الفيلم الوثائقي هو تجربة مع الزمن والخيال والحس والتفاعل البصري.

ـ والفيلم الوثائقي ذاكرة حية متجددة، ووثيقة صادقة لا تكذب أو تنحاز، لديها القدرة على كشف التفاصيل والبوح بكثير من الأسرار التي قد تعجز عنها الكلمة المكتوبة، ومنذ اختراع آلة التصوير وهي تسير جنبًا إلى جنب مع النص المكتوب في رصد حركة الحياة وتوثيق تطورها في كثير من المجالات.

ـ ولكن على الرغم من أهمية الفيلم الوثائقي كوثيقة تاريخية، وذاكرة ثقافية، ومرآة اجتماعية قادر على تثبيت اللحظات التاريخية الهامة والحاسمة والاحتفاظ بها كما هي، فإنَّ الفيلم الوثائقي لم يأخذ الاهتمام نفسه والعناية التي حظيت بها النصوص المكتوبة في عملية التسجيل التاريخي لقصة القرآن الكريم.

مقدمة الفكرة:

موضوع هذه السلسلة يتصل بصميم القرآن نصًا ومفهومًا، وتاريخًا،

يتعلق بجوانبه الوثائقية، والتدوينية والشكلية أثرًا ومعاناة وتأريخًا، من خلال بعض الجزئيات المتناثرة، يجمع شتاتها، ويضعها على أرضية التوثيق والنقاش، بعيدًا عن الفهم التقليدي حينًا، وعن التزمت الموروث حينًا آخر، في استيعاب القضايا المعقدة، وارتياد المناخ المجهول.

ومفردات هذه السلسة تتناول «تأريخ القرآن» بكل التفصيلات الدقيقة، والأبعاد المترامية الأطراف؛ ابتداء من ظاهرة وحيه، ومرورًا بنزوله، وجمعه، وقراءات، وشكله، وانتهاء بسلامته وصيانته:

١ ـ وحي القرآن، وقد تكفل بالحديث عن ظاهرة الوحي القرآني، ورعاية الوحي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم شأنه بذلك شأن من تقدمه من الرسل، وكان ميدانًا لتفسير الظاهرة وتعليلها نفسيًا وعلميًا وقرآنيًا، مع معالجة مجموعة التقولات والاجتهادات التي تناولت الوحي حينًا، والكشف والإلهام والروحية حينًا آخر، بما ميزنا به حالة الوحي عن سواها، وتأثيرها الخارجي عند النبي ﷺ، واستقبال النبي ﷺ لحقيقة جديدة مستقلة عن كيانه وشعوره وإرادته، تأمر وتنهى وتقرر، والنبي ﷺ يستمع، وينفذ، ويبلغ، وكان ذلك هو الوحي، وكان هذا الوحي قرآنًا عجبًا، عبرت العرب عن حيرتها أمام تياره المتدفق، وأخفقت تخرصاتها المتناقضة في وصفه.

٢ ـ نزول القرآن بداية النزول، وزمن النزول، والنزول التدريجي والجملي وأسرار تنجيم القرآن الكريم، ومرحلية النزول، وتأريخية السور القرآنية مكيها ومدنيها، وضوابط هذين القسمين، وأسباب

النزول وتأريخيته، وما نزل بمكة وما نزل بالمدينة، بما يعتبر فصلًا نموذجيًا مكثفًا، أعقبناه بترتيب إحصائي لسور القرآن وعددها، وعدد آياتها، ونزولها الزماني والمكاني.

٣ ـ جمع القرآن، وقد يتناول بالبحث الموضوعي روايات الجمع في تأريخها وتناقضها، وتتبع شذراتها هنا وهناك وغربلتها، وذهب إلى أنَّ القرآن كان مجموعًا على عهد النبي ﷺ، وكانت أدلة جمعه متعاقبة في الروايات المعتبرة، وتوافر مصاحف الصحابة، وعملية الإقراء القرآني والتعليم في عهد رسول الله ﷺ، ودليل الكتابة ووجود الكتاب، وأدلة أخرى قطعية استنتاجية وروائية، ومصير مصحف أبي بكر (رضي الله عنه) وبحث المواقف المترددة في الأمر، ومصحف عثمان في أطواره كافة، واعتباره النص القرآني الكامل، سلامة القرآن، وتوثيق النص القرآني، وعدم وقوع التحريف فيه، والقول بالتحريف من كل وجوهه وافتراضاته، ادعاءات، وافتراضات، وروايات، واتهامات، وشبهات، ومحاولات.

٤ ـ قراءات القرآن الاتجاهات الرئيسية في أسباب ومؤثرات وعوامل نشوء القراءات القرآنية، وحديث الأحرف السبعة، وموضوع اختلاف القراءات وتعددها منذ عهد مبكر، وكان مصدر القراءات مستهدفًا الاتجاهات كافة، باعتبار شكل المصحف العثماني، وطريق الرواية الشفوية عن النبي ﷺ، واختلاف لهجات العرب، قضايا ذات أهمية متكافئة في نشوء القراءات.

٥ ـ شكل القرآن، وتناول بالبحث: ما هو المراد من شكل القرآن،

وكراهة الأوائل للزيادات التوضيحية في الرسم القرآني، وبداية إعجام القرآن ونقطه على يد أبي الأسود وتلامذته، فكان الرائد الأول، وتبعه الخليل بن أحمد الفراهيدي في ابتداع أشكال الحركات، وبحث بعد النقط والحركات مظاهر الهمز والتشديد والروم والإشمام، وما أحدث على الشكل عمومًا بغية التطوير، وجعلوا لذلك قواعد للتمييز بين النص ومحسناته، ثم تناول مسألة الرسم المصحفي، وما صاحبها من مغالاة وتقديس لا تمت إلى الذائقة الشرعية بصلة، وهل الخط المصحفي توقيفيًّا؟، وهل يمكن أن يكتب بأي خط كان؟ وكيف كان شكل القرآن متجاوبًا مع العصور في تطوير خطوطه حتى طباعته في الغرب وفي مصر وفي أجزاء أخرى من الوطن العربي؟

٦ ـ علوم القرآن: تناول كيف ظهرت العلوم المختلفة التي تطوف حول النص القرآني باعتباره كعبة الشرع الحنيف، وكيف توالدت تلك العلوم الواحد بعد الآخر، وتفرعت وتبرعمت، وكيف أفادت من تطور العلوم الإنسانية المختلفة على منهج الجمع بين القراءتين أو القراءة الارتقائية للقرآن، ومن ذلك العلوم التي تعنى بالمبنى والأخرى التي تعنى بالمعنى مثل علوم التفسير والإعجاز والبيان والبلاغة القرآنية وأسباب النزول وعلم الوجوه والنظائر وغيرها.

٧ ـ ترجمات القرآن الكريم: يتناول أهمية ترجمة القرآن لعالمية الإسلام، ومناقشة للآراء الفقهية المعارضة للترجمة، وتحليلًا لأسباب صعوبة ترجمة القرآن وأنواع الترجمات ومشكلاتها وعرضًا لتاريخ ترجمات القرآن، خاصة إلى اللغات الأوروبية، وجهود المسلمين في الترجمة سواء الجهود الجماعية/ المؤسسية أو الجهود الفردية.

الفكرة المقترحة:

سلسلة وثائقية على أربع حلقات مدة كل حلقة منهما ساعة تلفزيونية تبحث في تأريخ القرآن الكريم بكل التفصيلات الدقيقة، والأبعاد المترامية:

تتناول الحلقة الأولى: الوحي والنزول والجمع.

وتتناول الحلقة الثانية: القراءات والشكل.

وتتناول الحلقة الثالثة: علوم القرآن.

وتتناول الحلقة الرابعة: ترجمات القرآن.

أهداف العمل:

- تثبيت قلوب المؤمنين وإزالة شكوك المتشككين في القرآن وطريقة وصوله إلينا من لدن من تلقاه بالوحي وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحتى وصل إلينا.
- زيادة التعلق بالقرآن كونه محور الرسالة الخاتمة، وإعجازها الدائم.
- لفت الانتباه إلى أهمية عناية المسلمين بالقرآن الكريم بصريًا حتى لا يعبث بها غيرهم.
- سد ثغرة غياب وجود سلسلة وثائقية جامعة عن القرآن الكريم تحكي بشكل توثيقي وبصري قصة تأريخ وحكاية القرآن الكريم عبر العصور.

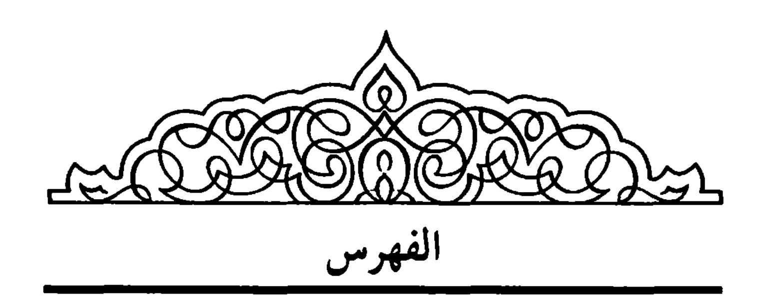
- إلقاء الضوء على الجهود الجماعية والفردية تجاه القرآن الكريم من جانب المسلمين.

محاور العمل:

سبعة محاور هي محور الوحي، ومحور النزول، ومحور الجمع، ومحور القراءات، ومحور الشكل، ومحور علوم القرآن، ومحور ترجمات القرآن.

المعالجة:

نوظف في السلسلة الوثائقية بحلقاتها الأربعة كل ما توافر لنا من بحث ومقابلات مع متخصصين ووثائق لتقديم تأريخ القرآن الكريم بكافة أدواره ومهماته، مع تفادي السرد التاريخي النظري لمحاور الأفكار والأحداث والشخصيات والقضايا.



الفهرس

مقدمات

قراءات

أفكار ومشاريع